أدب البيئة

بين
الأصالة والمعاصرة

الأستاذ الدكتور
السيد محمد الديب

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م
توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة
٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لم ينفصل الأدب العربى قديما وحديثا عن البيئة أو المجتمع الذى يحيا المبدعون فيه ، ويعبرون عنه بأساليب وأنماط تختلف من عصر إلى آخـــر حسب الرؤية والأداة ، ولذلك لا ينبغى إغفال ما قام به الأدب فى معالجـــة القضايا المختلفة، وإبراز الجوانب البارزة لنشاطات الإنسان ومتابعة التطور الذى كان ثابتا أصيلا، وهادئا بطيئا عند القدماء ، ثم غدا ســـريعا بـــارزا ومتنوعا شاملا عند المعاصرين ٠

وقد لوحظ فى السنوات الأخيرة ما يعانيه الأدب من عزلة عن القضايا الجديدة ، خاصة بعد أن اختفى من الساحة الأدبية أساطين الثقافة والفكـــر مثل عباس العقاد والدكتور طه حسين والـــدكتور محمـــد حســـين هيكـــل وغيرهم٠

ونشهد أن كثيرا من الهموم لا أثر للأدب فيها الآن مثل تنمية الشعور الدينى، والهوية العربية، وحوار الحضارات والثقافة المتجددة ، والأزمـــات الاجتماعية الحادة ، التى يعانى الناس منها ٠

وأكاد أجزم بأن الحياة الأدبية فى النصف الأول من القرن العشرين — بخاصة — كانت نمطا فريدا لم ييأس فيه أدباؤنا العظام من ممارسة حقوقهم المكتسبة فى التعبير بأقلامهم الحرة الجريئة ، وأن الأوضاع المختلفة مـــن سياسية وثقافية واجتماعية قد تحولت إلى أشكال وأنماط لم تكن تخطر على بال أحد، فقفزت معدلات التعليم إلى مستويات عالية زالـــت معهـــا معـــالم المجتمع التقليدى الموروث ٠

وقدم الفن القصصى العديد من الصور الاجتماعية التى عبرت عن كفاح الشعب العربى فى كل مكان، وخلفت البطالة وما يترتب عليهـا من فراغ أجيالا تؤمن ببعض المـذاهب الفكريـة المتطرفـة، والآراء الأصولية المتشددة، فوقع عن جهل أو سوء فهم فى براثن التطرف أو العنف ، حيث اتخذها مهربا أو نوعا من اليأس والخنوع •

وتأتى بعد هذه المقدمة بداية الكتاب حيـث كـان الحـديث عـن الأعشى (ميمون بن قيس) استهلالا له، ذلك الشاعر الذى علا صـوته فى الفخر القبلى، خاصة ما قاله يوم ذى قار الذى انتصرت فيه قبيلـة بكر على الفرس انتصارا مدويا، ومن قوله فى هذه المناسبة :

إذا أمالوا إلى النُّشَّـاب أيـديهم ∴ ملنا ببيضٍ فظل الهام يُخْتَطَفُ

وخيلُ بكر فما تنفـك تطحـنهم ∴ حتى تولوا وكاد اليوم ينتصفُ

لو أن كـلَّ مَعَـدٍّ كـان شـاركنا ∴ فى يوم ذى قار ما أخطاهمُ الشـرفُ

فارتباط الأعشى بقبيلته لا حدود له ، فبها يفتخر ولها يهجو، ومن أجلها يدور بين القبائل رافعا صوته فى كل مكان •

أما أبو نواس فبدأ حياته سكيرا ماجنا؛ لكنه لم يغفل عن الزهـد ، ولم يغلق أذنيه من مناجاة الله والاستغاثة به فى كثير من الثوابت، كما أن وصفه للدنيا صار مضربا للأمثال، ولا ننسى هذا البيت:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشـفت ∴ له عن عدو فى ثياب صـديق

ومن مناجاته لربه قوله :

يا رب إن عظُمت ذنوبى كثـرةً ∴ فلقد علمت بأن عفوك أعظـم

إن كان لا يرجــوك إلا محســـن ∴ فبمن يلوذ ويستجير المجــرم

أدعوك ربى كما أمرت تضــرعا ∴ فإذا رددت يدى فمن ذا يــرحم

مالى إليــك وســيلة إلا الرجــا ∴ وجميل عفوك ... ثم إنىَ مجرم

ويتجلى أدب البيئة بصورة واضحة فى الحديث عن موضـــوعين يختلفان فى التناول والعرض عما سبق وهما:

ملامح البيئة المصرية فى شعر البهاء زهير، والحياة الاجتماعيـــة كما صورها البوصيرى، فلهذا الشاعر رغبة فى التعبير عـــن البيئـــة، ومتطلبات الأمة ، وحاجات المجتمع ٠

ومن الملاحظ أن الأسلوب الفنى عنده كان فى حاجة إلى مزيد من الصقل والاهتمام؛ لأن الشعراء آنذاك لم يسمحوا كثيرا للخيـــال بـــأن يوشى التعبير بألوان من الصور الزاهية، والخيالات الرائعة والعواطف الصادقة ٠

ومن شعراء العصر الحديث أبوالقاسم الشابى الذى تحـــدث عـــن رفض الشعوب للغزاة المحتلين قائلا :

إذا الشـــعبُ يومـــا أراد الحيـــاة ∴ فلابـــد أن يســـتجيب القـــدرْ

ولابـــــد لليــــل أن ينجلـــــى ∴ ولابـــد للقيـــد أن ينكســـر

ولـــم يعانقـــه شـــوق الحيـــاة ∴ تبخـــر فـــى جوهـــا وانـــدثر

وقائلا فى أنشودة الجبّار :

سأعيش رغم الـداء والأعـداء ∴ كالنسر فوق القمــة الشــماء

وفى الكلام عن شعراء محافظة الشرقية بمصر ذكرت مجموعـــة كبيرة ممن تغنوا بأرض الواقع، وعاشوا فى أحضان الطبيعة الساحرة، وجاء الحديث عنهم ضمن موضوع بعنوان : "شعر الفصحى بين التقليد والتجديد"، ولا تتسع هذه المقدمة الموجزة إلا لهذه الإشارة الخاطفة.

وفى أدب المقالة ذكرت علمين عالمين من أدباء القرن العشـــرين أولهما ، مصطفى صادق الرافعى ، الذى قال فى مطلع كتابه النقـــدى (على السفود) :

وللسـفُّودِ نـــارٌ لـــو تلقّـــتْ ∴ بجاحمها حديدًا ظُـنَّ شـَحْمًا

ويشوى الصخرَ يتركــه رَمَـادًا ∴ فكيف وقد رميتُك فيــه لَحْمــًا

وثانيهما ، على أدهم ، الأديب الذى عشق مصر ، وأجاد التعبيـــر عنها .

ونصل إلى موضوعين عن الفن القصصى الأول هـــو: الطبيعـــة المصرية فى رواية (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل .

والثانى عن الخيال العلمى فى الرواية والقصة القصيرة ، وأعتقــد أن الكتاب لم يلتئم شمله ، فلا زال فى حاجـــة إلـــى مجموعـــة مـــن الموضوعات أراها جديرة بأن تكون ضميمة إلى ما ذكرناه .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ،

الأستاذ الدكتور

السيد محمد الديب

وكيل كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق

الأربعاء ١٨ من شوال سنة ١٤٢٥هـ
أول ديسمبر سنة ٢٠٠٤م

صوت القبيلة فى شعر الأعشى

صاحبنا فى هذه الصفحات هو الأعشى [١] الكبير، أبو بصير (ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل، الشاعر الذى عده ابن سلام الجمحى من الطبقة الأولى) والذى عرف بصناجة العرب؛ لجودة شعره، ولما يحدثه فى الآذان من دوى ورنين، أو لأنه كان يعزف على آلة تسمى (الصَّنْج) حتى ليخيل إليك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك، وكان راوية لشعر خاله (المسيب بن علس)٠

وقد عرف الأعشى بأنه شاعر الخمر والنساء ، وفى سبيلهما ارتحل إلى كثير من البلدان؛ ليمدح الحكام والأمراء وذوى النفوذ والسلطان ، ولم يكن له إلا قليل من الذكر خارج نطاق المدح والغزل وشعر الخمر، وأغلب هذا الخروج كان فى شعر الهجاء الذى اقتصر على خصوم قومه، ولم تطالع عيناى دوافع أهل الكوفة لتقديمه على غيره فى المراحل التالية لعصره٠

أما العبارة النقدية المنتشرة فلعلها تحسم قضية تقديمه على غيره، أو تقديم غيره عليه، وهى من مرويات ابن سلام، إذ سأل أبو خليفة يونس النحوى: من أشعر الناس ؟ قال: لا أومئ إلى رجل بعينه، ولكنى أقول: امرؤ القيس إذ غضب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب"[٢]٠

---

(١) الأعشى : من لا يبصر فى الليل ، ويبصر فى النهار ، وقد عمى أعشانا فى أواخر عمره، والذين لقبوا بهذا اللقب كثيرون ، أحصى منهم الآمدى سبعة عشر بين جاهلى وإسلامى، ويتميزون بنسبتهم إلى قبائلهم ٠

(٢) الأغانى طبعة دار الكتب المصرية جـ٩ صـ١٠٨ ٠

وهى مقولة لا ينبغى الوقوف عندها ، أو الاكتفاء بها، وليست إلا مسوغا أو دليلا يحتج به ابن سلام فى تقديمه لهؤلاء الأربعـة الـذين جعلهم عماد الطبقة الأولى للشعراء الجاهليين ٠

ولد أعشى قيس فى قرية منفوحة باليمامة، وتوفى بها حوالى سنة سبع من الهجرة، وكان شعره يمثل قومه من بنى سعد بن ضبيعة، ثـم بنى قيس بن ثعلبة، ويعبر عن آل بكر بن وائل جميعا. واشتهر والـده بلقب (قتيل الجوع) ولذلك قصة حيث دخل غارا، ثم سد عليـه فمـات بداخله جوعا٠

وكان (يحيى بن متى) راوية له، وقيل إنه أعد قصيدة فى مـدح الرسول ﷺ بالمدينة، ولم يصل إليه ، فقد حذرته قريش من الإسلام إذ قيل له: إنه سيحجبه عن الخمر والقمار والنساء، والقصيدة موجودة فى ديوانه ، وفى بعض كتب التراث القديم إلا أن الشك فيها لا يقـل عـن الشك فى غيرها من بعض قصائد الأعشى؛ لاعتبارات كثيرة، فقد كان الرجل شاعرا جوالا يمدح الرجال ويتغزل فى النساء، ويستمع للقيـان فى حانات الخمر، ويذكر الكثير من القصص والروايات على مسـامع القبائل العربية والفارسية، حتى قيل إنه أول من تكسب بشعره، فحـط كثيرا من قدره، وقد وفد على ملوك فـارس ، والحيـرة ، وغسـان ، وكندة ، واليمن ، ونجران ، وعمان ، وبلاد الشام ٠

واتسعت الرؤية لشعر الأعشى من منظور الغـزل الـذى كـان يفيض بالشهوة العارمة ، ولم تمح من ذاكرة الرواة ما قاله من نمـاذج

للشعر المكشوف الذى لم يقله امرؤ القيس أو غيره من الشـعراء فـى الجاهلية وبعدها، وقد تغزل فى ثلاث قيـان هـن قتيلـة ، وجبيـرة، وهريرة، وفى هذه الأخيرة ابتدأ قصيدته التى كانت واحدة من القصائد العشرة المشهورة وأولها:

ودع هريرة إن الركب مرتحـلُ ∴ وهى تطيق وداعا أيها الرجـلُ
غـراء فرعـاءُ مصـقولٌ عوارضُـها ∴ تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحـل[١]
كأن مشيتها من بيـت جارتهـا ∴ مرُّ السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَـلُ

وفيها :

عُلِّقتُها عرضا، وعلقـتْ رجـلا ∴ غيرى وعُلِّق أخرى غيرها الرجل
وعُلِّقَتْـهُ فتـاةٌ مـا يحاولهـا ∴ من أهلها مَيِّتٌ يهذى بها وَهِلُ[٢]
وعلقتنى أُخَيْرى مـا تلائمنـى ∴ فاجتمعَ الحب حبـا كلـه تبِـل
فكلنا مغـرم يهـذى بصـاحبه ∴ ناءٍ ودانٍ ومخبولٌ ومُحْتبِـل[٣]
قالت هريرة لما جئـتُ زائرهـا ∴ ويلى عليك وويلى منك يا رجل[٤]

ومن غزله المكشوف قوله :

فلمـا التقينـا علـى بابهـا ∴ ومَـدّت إلـى بأسـبابها

---

(١) العوارض : ما يبدو من الأسنان عند الابتسام ، الوجى : الذى حفى قدمه •
(٢) وهل: الذى ذهب عقله •
(٣) احتبل الرجل الصيد : أخذه فى الحبالة •
(٤) الديوان (ديوان الأعشى الكبير) شرح الدكتور محمد محمـد حسـين طبـع مؤسسة الرسالة ص١٠٥ وما بعدها •

بــذلنا لهــا حُكْمَهــا عنــدنا ∴ وجادت بحكمــى لأُلْهَــى بهــا

فطــورا تكــون مِهــادا لنــا ∴ وطورا أكــون فُيعْلَــى بهــا[١]

وكان الأعشى واحداً من أبرز شعراء الخمر فى عصره ، وقــد شربها، وتغنى بها، ومهد السبيل لمن جاء بعده للحــديث عنهــا مثــل الأخطل وأبى نواس وغيرهما، قال :

وكــأسٍ شــربت علــى لــذة ∴ وأخرى تــداويت منهــا بهــا

لكى يعلمَ النــاسُ أنــى امــرؤ ∴ أتيت المعيشــة مــن بابهــا[٢]

وكان حبه للخمر مشهورا فى حياته وبعد مماته، فحدث محمد بن إدريس بن سليمان بن أبى حفصة، قال: قبره بمنفوحة، وأنا رأيته، فإذا أراد الفتيان أن يشربوا خرجوا إلى قبره فشربوا عنده، وصبوا عنــده فضلات الأقداح"[٣].

وفى رواية أخرى ذكرها على بن سليمان النوفلى عن أبيه، قال: أتيت اليمامة والياً عليها، فمررت بمنفوحة وهى منزل الأعشى التــى يقول فيها :

.... ∴ بشط منفوحةَ فالحاجرِ

فقلت : أهذه قرية الأعشى؟ قالوا: نعم، فقلت : أين منزله؟ قالوا: ذاك وأشاروا إليه، فقلت: فأين قبره؟ قالوا: بفناء بيتــه، فعــدلت إليــه

---

(١) الديوان ص٢٢١ .

(٢) الديوان ص٢٢٢ .

(٣) الأغانى جـ٩ صـ١٢٦ .

بالجيش فانتهيت إلى قبره فإذا هو رطب، فقلت: مالى أراه رطبا؟ فقالوا إن الفتيان ينادمونه ، فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه القدح صبوه عليه لقوله : أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين الزنـــا والخمر"[١].

وكان شعره فى الخمر مغايرا لشعر الجاهليين ـــ كما قال الدكتور محمد حسين حيث تشيع فيه الحياة، ويشف عن الصلة العاطفية التـــى تقوم بين الشاعر وبين موضوعه، وقال : "والواقع أن الأعشـــى كـــان مفتونا بالخمر وبمجالسها لا يعدل بها شيئا ، ولا يستطيع لها فراقـــاً ، وقال :

أطال الأعشى فى شعر الخمر ، وفصل، وافـــتن فـــى وصـــف بيوتها، وتصوير أثرها فى النفس ، وقدم لنا صورا دقيقة حية لمجالسها فى بيات منوعة، متباينة، بعضها حضرى مترف، وبعضـــها ريفـــى ساذج، واتسمت خمرياته بالســـهولة والسلاســـة والخلاعـــة، وتـــدفق العاطفة، وكان موفقا غاية التوفيق فى اختيار القوالب الشـــعرية التـــى تناسب هذا الفن"[٢].

ثم ذكر بعض صوره الخمرية التى تأثر بها الأخطل وأبونواس٠

والواقع إننى لا أحب الإطالة فى الحديث عن شعر الخمر والنساء عند أبى بصير، إذ ليس ذلك سوى مقدمة لمـــا نحـــن مشـــغولون بـــه

(١) الأغانى جـــ٩ صـــ١٢٦ ٠
(٢) الديوان ـــ المقدمة ص٣٢ ٠

وعازمون عليه، فهذان الغرضان لا علاقة لهما مباشرة بالشعر القبلى الذى كان صوتا قويا عند معظم الجاهليين، وللأعشى غرضان آخران يتصلان من جوانب أخرى بالهموم المتعددة لبكر بن وائل ولقومه من بنى قيس بن ثعلبة فينحاز لقومه ويمدحهم ، ويهجو خصومهم ويهاجم أعداءهم .

أما الفخر فليس له من هدف سوى الإشادة بقومه وتسجيل انتصاراتهم والإشادة بأبطالهم، والتنديد بخصومهم، وتهديد الفرس، وفض المنازعات بين أبناء القبيلة.

فالأعشى شاعر متعدد الجوانب ، جهير الصوت ، كثير الفنون، تجاوز حدود آل بكر بن وائل، فمدح وهجا، وأحب الخمر ، وتغزل بالنساء ، ودخل شعره ساحة الغناء فشدت القيان بقصائده ومقطوعاته ، فهو شاعر ذاتى أحب نفسه، وأقبل على كثير من المتع الحسية، فنهل منها، وتحدث عنها، وكان هذا الجانب معروفا فى شخصيته فلا يكاد يذكره أحد مهموما بتبعات قومه باستثناء بعض اللأبيات فى حروب العرب مع الفرس، والذى يتفحص ديوانه يراه على عكس ما أشيع عنه واشتهر به ، ويبدو أن ما فى شعره من غزل مكشوف، وتعلق سافر بالخمر صرف الكثيرين عنه، معتقدين أن ما قاله أقل كثيرا مما نسب إليه، أما الجوانب الأخرى فى ديوانه فبقيت مطمورة لم تلق عناية واهتماما، وهذه بعض الجوانب التى تدفع أبابصير إلى مصاف الشعراء الذين يشاركون فى شؤون القبيلة، ويسجلون انتصاراتها ويهاجمون

أعداءها، ويؤرخون لوقائعها، ويشيدون بأبطالها ، ويندون بخصـــومها ويرفعون صوتها فى الحواضر والبوادى ٠

أولا : الفخر القبلى :

عاش الأعشى حياته بطريقته ومذهبه فى الحياة فليس هو الشاعر الذى يتحدث بلسان الجماعة، ويفتخر بقومه على طريقة شاعر الفخـــر القبلى عمرو بن كلثوم التغلبى، وليس هو الشاعر الذى يقدم شخصـــيته الفردية ويعتد بها على مذهب طرفة بن العبد، أو يحتمى بها متجـــاهلا أو معاديا للقبيلة كالشعراء الصعاليك، أو متجاوبا معها أملا فى تحقيق هدفه وإثبات ذاته مستعملا الضمير المفرد كما هو الحال فـــى شـــعر راعى الإبل عنترة بن شداد، ولكنه الشاعر الذى يعلو عنـــده صـــوت القبيلة فيشارك فى شؤونها ويخلص لها، ويسجل انتصـــاراتها، وينـــدد بخصومها دون أن تذوب شخصيته تماما، أى أنه يجمع بين الأصوات المتعددة التى تمثله وتمثل القبيلة فى آن واحد ، فقد عاش حياته طـــولا وعرضا متنقلا بين المدح والهجاء والخمر والنساء حتى ظنه الناس من طائفة امرئ القيس ، ومن أصحاب النزعة الأحادية والمذاهب الفردية فى الشعر والحياة، ولكن ذلك لم يكن إلا جزءا من الصورة، وتظهـــر بقاياها فى تعلقه بقبيلته، وحديثه عـــن قومـــه، وأن حياتـــه ورحلاتـــه وانغماسه فى شهواته وشربه للخمر وسماعه للقيان لم يصـــرفه عـــن المشاركة فى شؤون بكر وبطونها جميعـــا ، فيســـجل الانتصـــارات، ويهاجم الأعداء ، ويؤرخ للوقائع، ويشيد بالأبطال ، ويهجو الخصـــوم والأعداء، وهو كذلك ليس زهير بن أبى سلمى الداعى إلى الســـلام ولا

امرأ القيس فى غزله، وانصرافه إلى جبال اليمن أو ارتحاله إلى القيصر فى أنقرة من أجل أهداف قبيلته، وإنما هو الأعشى الكبير المتفرد فى غزله وولعه بالخمر والغناء ، وسعيه إلى المدح للتكسب، وحرصه على القبيلة، ورفع صوتها عاليا مدويا، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحته الفردية عندما تشتعل نيران الحرب مع الفرس، أو عندما تتأجج بين أهله الأبعدين من بنى بكر ، كأن يشيد ببنى شيبان فى يوم ذى قار ، فإذا نشب خلاف بينهم مع قومه (قيس بن ثعلبة) فإنه ينحاز لقومه مع أنهم جميعا بكريون .

ويخاطب مفتخرا فى المعلقة ـ يزيد بن مسهر ـ الشيبانى فيقول إلى من يتخيله سيحمل رسالة إليه :

أبلغ يزيدَ بنى شيبانَ مألكةً ∴ أبا ثُبيت أما تنفك تأتكل(١)

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ∴ ولستَ ضائرها ما أطّت الإبل(٢)

تُغرى بنا رهط مسعود وإخوته ∴ عند اللقاء فتُردى ثم تعتزل(٣)

لأعرفنك إن جد النفير بنا ∴ وشبت الحرب بالطُوّاف واحتملوا(٤)

كناطحٍ صخرةً يوما ليفلقها ∴ فلم يَضِرْها وأوهى قرنه الوعل(٥)

---

(١) مألكة : رسالة، تأتكل: تسعى بالشر والفساد .
(٢) الأثلة: شجرة ، أطت الإبل: أنت تعبا .
(٣) أرداه: أوقعه فى الردى والهلاك .
(٤) النفير : القوم ينفرون معك للقتال ، الطواف: الذين يطوفون .
(٥) الديوان ص١١١ .

يكلف الشاعر من يحمل عنه رسالة إلى يزيد بن شيبان يحذره من سعيه بالشر، وغليان صدره بالكراهية، وكيف لا يتوقف عن الحديث السيئ عنهم والنحت فى صخرتهم وشجرة كيانهم وهو يعلم أنه لن يضيرهم أبدا مهما أغرى بهم رهط مسعود وإخوته الذين لا يثبتون فى اللقاء فيهلكون فى الحرب، ويتخلى عنهم كأنه لم يفعل شيئا، أو يرتكب إثماً، ولسوف يعرفه الشاعر عندما يشتد أوار الحرب، وينتشر المقاتلون حاملين السبايا أنه ليس إلا وعلا ينطح صخرة محاولاً كسرها فلم يؤثر فيها، وإنما أضعف قرنه بلا نتيجة، وقال :

سائل بنى أسدٍ عنا فقد علموا ∴ أن سوف يأتيك من أبنائنا شكل[١]

وأسأل قُشيرا وعبدالله كلهم ∴ واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل[٢]

إنا نقاتلهم حتى نقتلهم ∴ عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم ∴ إنا لأمثالكم يا قومنا قُتُلُ

حتى يظل عميد القوم متكئا ∴ يدفع بالراح عنه نسوة عجل[٣]

أصابه هندوانى فأقصده ∴ أو ذابلٌ من رماح الخط معتدل[٤]

قد نخضب العير من مكنون فائله ∴ وقد يشيط على أرماحنا البطل[٥]

---

(١) أسد : أى أسد بن ربيعة، شكل : أبناء ، خبر بعد خبر •

(٢) قشير : أى قشير بن كعب بن ربيعة •

(٣) عميد القوم : سيدهم ، الراح : جمع راحة وهى بطن اليد، عجل: جمع عجول وهى المرأة الثكلى •

(٤) هندواني : سيف مصنوع فى الهند، أقصده: أصابه فلم يخطئه، ذابل : رمح الخط: بلد بالبحرين مشهورة بصناعة الرماح الجيدة •

(٥) العير : بمعنى السيد، الفائل : عرق يجرى من الجوف إلى الفخذ، ومكنون الفائل : الدم . يشيط: يهلك ويحترق •

هل تنتهون؟ ولا ينهى ذوى شَطَطٍ ∴ كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل[١]

ويفتخر فى الأبيات السابقة بالقبائل التى هزموها، فيــذكر منهــا (أسد بن ربيعة) و(قشير بن كعب بن ربيعة) ويحثه على سؤال هــؤلاء وغيرهم، ليخبروه بما كان عليه قوم الشاعر فى القتال ، وقــال: إننــا عندما نلقاهم ونقاتلهم نقضى عليهم بما جنوه على أنفسهم ، وقد زعمتم أننا لا نقدر على قتالكم، ولكننا أنداء لكم، ولا نعجز عــنكم، ويتهــاوى سيدكم ، ويسقط على يديه ، وقد هلك الرجال حوله، فلا يوجــد معــه سوى النساء اللاتى يدافعن عنه بأيديهن، وقد أصابه سيف اسال دمه أو رمح أهلكه، وإننا أقدر الناس على تحديد موضع الطعن مــن الجســم، فنصيب سيد القوم فى العرق الذى يجرى بالدم من الجوف إلى الفخذ ، ويهلك على أرماحنا البطل من الخصوم والأعداء، فانتهوا أيها القــوم، ولن تنتهوا لما أنتم فيه من بغى كالطعنة العميقة التى تغور فيها الفتائل والزيت٠

وهذه الأبيات الأخيرة لا تختلف فى مضمونها العام عــن أبيــات مشابهة تضمنتها معلقة عمرو بن كلثوم وبعض الأبيــات مــن معلقــة عنترة التى تخلى فيها عن فرديته وانحاز إلى الحديث بلسان القبيلة ٠

ويفتخر شاعرنا بأبناء قومه قيس بن ثعلبة فى واحدة من القصائد الخالصة للفخر بعد تجاوز الأبيات الغزلية التى استهل بها القصيدة، إذ

---

(١) الشطط : الغلو ٠

لديه الكثير من المجد الذى يفتخر به فى أبناء قومه العصـــبة القيســـية الشم الأنوف الذين يبذلون الجهد والمال فى سبيل كرامتهم ، ويمشـــون بعزة وكرامة، ويرتدون أفضل الثياب، ويشربون — فى زمن القحــط والغلاء — خالص الخمر ، وينفقون كل غال ورخـيص، ويضـــمنون لقومهم — أثناء الحرب الحديث الحسن والذكر الطيب، وأن فيهم مـــن الفرسان الكثيرين الحاذقين فى الحرب الذين يصـــيحون فرحـــا بمـــا يحققونه من إصابات قاتلة، قال :

إنى امرؤ من عصـــبة قيســـيةٍ ∴ شُمِّ الأنوف غرانق أحْشَـــاد[١]

الواطنين على صـــدور نعـــالهم ∴ يمشون فى الدَّفَنِىِّ والأبـــراد[٢]

والشاربين إذا الذوارعُ غُوليـــت ∴ صفوَ الفضال بطارفٍ وتـــلادِ[٣]

والضامنين بقومهم يوم الـــوَغَى ∴ للحمد يومَ تنـــازُلٍ وطـــراد[٤]

كم فيهم من فارس يوم الـــوغى ∴ ثَقْفِ اليدين يَهِلُّ بالإقصـــاد[٥]

---

(١) غرانق : جمع غرنوق وهو الشاب الأبيض الجميل ، الأحشاد: جمع حشـــد (فتح فكسر) وهو من لا يدع عند نفسه شيئاً من النصرة والجهد والمـــال إلا بذله •

(٢) الدفنى: ثوب مخطط، الأبراد: جمع برد وهو كساء مخطط يلتحف به•

(٣) الذوارع: جمع ذروع وهو البعير، الطارف: المستحدث ، التلاد: المـــوروث القديم •

(٤) طراد : مطاردة •

(٥) ثقف : حاذق، يهل بالإقصاد: يفرح بإصابة السهم لهدفـــه، والأبيـــات مـــن القصيدة رقم ١٦ •

والفخر في الأبيات متنوع وليس كسابقه فهو يجمع بين الحـديث عن عراقة الأصل وكرم المحتد، وارتداء أفخـر الثيـاب، وشـجاعة الأبطال الذين يحققون أعظم الانتصارات ٠

وتحدث عن يوم ذى قار[١] فى عدة قصائد، فهدد الفرس، واستنفر قومه قبل الموقعة فى واحدة، وامتدح بنى شيبان بن ثعلبة فى أخـرى، وذكر رحلة قيس بن مسعود إلى كسرى بعد اللقاء فى واحدة، افتخـر باليوم فى بيتين، ثم افتخر فى قصيدة أخرى من خمسة وعشرين بيتـا وصف فيها اللقاء وصفا متميزا أشاد فيه برجال بكر بـن وائـل فـى حروبهم يوم ذى قار ، قال :

وجند كسرى غداةَ الحنْوِ صبحهم ∴ منا كتائبُ تُزْجى الموت فانصرفوا[٢]

جحاجحٌ وبنو مُلْكٍ غطارفة ∴ من الأعاجم فى آذانها النطف[٣]

إذا أمالوا إلى النشاب أيديهم ∴ ملنا ببيض فظل الهام يُخْتَطف[٤]

وخيل بكر فما تنفك تطحنهم ∴ حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

لو أن كل معد كان شاركنا ∴ فى يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف[٥]

لما أتونا كأن الليل يقدمهم ∴ مُطَبِّقَ الأرض يغشاها بهم سَدَفُ[٦]

---

(١) موضع قريب من الكوفة ، جرت به موقعة مشهورة بين الفرس وبكر بـن وائل ، وكانت ــ فى بعض الأقوال ــ فى بداية بعثة الرسول ــ ﷺ ــ ٠

(٢) الحنو: منعرج الوادى ، تزجى: تدفع ٠

(٣) جحاجح: الأسياد المسارعون إلى المكارم، ومـثلهم الغطارفـة ، النطـف: اللآلئ٠

(٤) النشاب : السهام ٠

(٥) معد بن عدنان : جد عرب الشمال من قبائل ربيعة ومضر ٠

(٦) مطبق الأرض : معطيها ، السدف : الظلمة ٠

وظعننا خلفنــا كحــلا مــدامعها ∴ أكبادها وجف مما ترى تجف[١]

حواسرٌ عن خدود عاينت عبــرا ∴ ولاحها وعلاها غبرة كسف[٢]

من كل مرجانةٍ فى البحــر أخرجهــا ∴ غواصها ووقاها طينها الصــدف[٣]

وقد انتهت القصيدة عند هذه الأبيات التى جاءت للحديث عن يوم ذى قار ، حيث تحقق النصر لقبيلة بكر بن وائل على جيوش الفــرس، ذلك الشرف الذى لو وزع على قبائل معد لكفاهم جميعاً ٠

وكانت النساء واقفات خلف الصفوف ينظرن فى خــوف وهلــع، والدموع تجرى على الخدود التى غيرها الحزن وكستها الغبرة المظلمة لكنهن كن مشرفات وكأن كل واحدة منهن مرجانة خرجت لتوها مــن أعماق البحر ، مصانة بالأصداف٠

ولم يطل نفس الشاعر فى الحديث عن هذا اليوم مع أنه افتخر به فى عدة قصائد أخرى، ولكنه لم يتناول وصف الحــرب بمثــل هــذه الأبيات ، ولم يكن الأعشى من الشــعراء الــذين يحســنون وصــف المعارك، وإذا ما تحدث عن هذا الجانب جاء حديثه موجزا غير واف، فلم يكن فارسا يشارك فى الحرب، أو بطلا يحسن المبارزة، واقصــى ما يستطيعه فى هذا الجانب أن يفتخر بالنصر، ويكرر هذا الفخر بأكثر

---

(١) ظعننا: زوجاتنا، مدامع: عيون، وجف: خافقة (المفرد واجف) ٠

(٢) حواسر : مزجيات للنقاب ، عبر: دموع، الغبرة: لون الغبار، كسف: جمــع كاسف وهو المهموم ٠

(٣) مرجانة: امرأة تشبه المرجانة،الصدف: جمع صدفة. وانظر القصيدة رقم٦٢

من صورة خاصة إذا كان على الفرس، وفى نصر عزيز انتزعه العرب من أنيابهم.

لقد كانت الحرب موجهة لا إلى بنى شيبان ولا إلى آل بكر بن وائل فحسب، وإنما إلى القبائل العربية فى المنطقة كلها، وقد لحقت الهزيمة بالفرس، فعمت الفرحة البكريين جميعا ومن انضم إليهم، وكان أن سجل الأعشى هذا النصر فى عدة قصائد تسبق اللقاء ، أو تمهد له، أو تتحدث عنه، وإذا كان التقى بكسرى ونال عطاءه لكن المصلحة القومية فوق كل اعتبار ، وحبه لقومه ليس محلا للنقاش .

ثانيا : مدح رجال قبيلته ، والانحياز لقومه من بنى قيس بن ثعلبة:

كان هوذة بن على الحنفى ملكا على قومه (حنيفة)، وهم فرع من فروع بكر بن وائل، وكان على علاقة حميمة بكسرى، مما جعل قومه فى أمان من هجمات الفرس ، وقد مدحه الأعشى بأربع قصائد منها الرائية التى يبدو أن الأعشى قد هتف بها فى آخر عمره، وأشار فيها إلى ضياع بصره مما يجعلها إحدى المصادر التاريخية لحياته، وفيها يقول[*] :

إلى ملك كهلال السما ∴ ء أزكى وفاء ومجدا وخيرا[١]
طويل النجاد رفيع العما ∴ د يحمى المضاف ويعطى الفقيرا[٢]

(*) من القصيدة رقم ١٢ ص١٤٧ .
(١) وخيرا : كرما .
(٢) طويل النجاد : طويل حمائل السيف (كناية عن طول الممدوح) ، رفيع العماد: طويل عمود الخباء (كناية عن ارتفاعه) ، المضاف : المستجير .

أهـــوذ وأنـــت امـــرؤ ماجـــدٌ ∴ وبحرك فى الناس يعلو البحورا
مننت علـــى العطـــاء الجزيـــل ∴ وقد قصر الضن منى كثيـــرا(١)
فـــأهلى فـــداؤك يـــوم الجفـــا ∴ رإذ ترك القيد خطوى قصـــيرا(٢)
وأهلـــى فـــداؤك عنـــد النـــزال ∴ إذا كان دعوى الرجال الكريـــرا(٣)

والأبيات واضحة المعنى فى المدح، أما يوم الجفـار فقـد كـان واحدا من الأيام التى كانت بين بكر وتميم ، وقد غزا فيه هوذة تميمـا، واعتذر الشاعر عن غيابه فى هذا اليوم بسبب ضعفه وعجـزه عـن متابعة الممدوح •

وتتواصل الأبيات عن معارك (هوذة) وانتصاراته على (تمـيم)، قال:

فسائل تميمـا وعنـدى البيـانٌ ∴ وإن تكتموا تجـدونى خبيـرا
تمنـــوك بالغيـــب مـــا يفتنـــو ∴ ن يبنون فى كل ماء جـديرا(٤)
فـأخطرت أهلـك عـن أهلهـم ∴ فصادفَ قِدْحُك فـوزا يسـيرا
ولمـا لُقيـت مـع المخطـرينَ ∴ وجدتَ الإلـه علـيهم قـديرا
وأعـددت للحـرب أوزارهـا ∴ رماحا طوالا وخيلا ذُكُـورا(٥)

---

(١) الضن : البخل •
(٢) القيد : العمى ، فجعل خطوه قصيرا يكاد لا يبرح منزله •
(٣) الكرير : صوت فى الصدر مثل صوت المختنق •
(٤) الجدير : جمع جديرة وهى الحظيرة •
(٥) أوزار الحرب : عدتها •

ومـــن نســـج داود موضـــونة ∴ تُساق مع الحى عِيرا فعيـــرا[١]
إذا ازْدَحَمَتْ فى المكان المضيـ ∴ ق حَتَّ التزاحم منها القتيرا[٢]
لهـــا جَـــرَسٌ كحفيـــف الحصـــا ∴ د صادف بالليل ريحا دبـــورا[٣]

إن ما ألحقه (هوذة) بتميم معروف، وقد كانوا يجهـــزون أنفســـهم للقائه مع جيشه، ويأخذون الأهبة والاستعداد ، فلما التقى بهـــم وجـــد النصر عليهم أيسر ما يكون حيث أعد نفسه لقتالهم بالدروع المنسوجة حيث تحتك مساميرها التى تتشابك بها عند ازدحام الأمكنة ، وتنبعـــث منها الأصوات كحفيف الحصاد عندما تهزه الريح فى سكون الليل.

وتتواصل الأبيات عن أبطال اللقاء والجيـــاد المعـــدة بـــالأموال الكثيرة، وقد بدا عليها الكلال من كثرة الغارات على الأعداء.

وهكذا بدا صوت الأعشى قويا ومجلجلا فى هذه الرائية التى أشاد فيها بانتصار (هَوْذة) على تميم فى معركة الجفار خاصة.

ولأبى بصير مجموعة من القصائد تتصل بمصالح قومـــه حيـــث يدعوهم لمحالفة قيس بن معد يكرب ؛ لأنه ملك قوى يحمى من يحـــل عليه لاجئا ، ويظلله بحمايته .

---

(١) درع موضونة: منسوجة بعضها على بعض، تساق: تحمل ويرسل بها .
(٢) حت : حك ، القتير: رءوس المسامير .
(٣) الجرس : صوتها حين يحتك بعضها ببعض . الحصاد: النبات الذى جـــف على سوقه، الدبور: الريح الغربية.

وهكذا ينهض شاعرنا بدور مهم وبارز فى توجيه قبيلته، إذا أنـــه اللسان الناطق بمطالبها، والزعيم الذى يوجه سياستها، ويسخر نفســه لخدمتها ورفع صوتها أمام الملوك وأصحاب النفوذ والسلطان، وله فى هذا اللون شعر كثير مدح به بعض الرجال من (بكر) ومن غيرها٠

ونقرأ له من شعره ما يتدخل به أحيانا لفض النزاعات بين فروع بكر ، فيمدح بنى شيبان وهم من فروع (بكر)؛ ليسألهم فـــى يـــوم ذى قار، وعندما ينشب خلاف بينهم وبين قيس بن ثعلبة وهم قومـــه فإنـــه ينحاز لبنى ثعلبة أى أن العصبية لقومه الأقرب فـــالأقرب فـــوق كـــل اعتبار ، ولهذا تجاوز الخلاف الذى نشب بين بنى عبدان وقومه ســـعد بن ضبيعة، وحاول الصلح بينهم ، ورد علـــى بنـــى عبـــدان وعلـــى شاعرهم جهنام[*] ٠

وتتجلى مظاهر الشعر القبلى فيما قاله بحق بنى جحدر بن قـــيس ابن ثعلبة، ويجمع فيه بين العنف واللين، والغضب والحنين ، والإبـــاء والوفاء[**] ٠

فالعصبية عنده تتغير بتغير الظروف ، ويقـــدم الأقـــارب علـــى الأباعد من القبيلة، فيبدأ بتمثيل بنى سعد بن ضبيعة، ثم بنى قيس بـــن ثعلبة، ويعلو فيمثل بكر بن وائل جميعا، إلى أن يمثـــل العدنانيـــة فـــى مواجهة اليمنية[١]٠

(*) القصيدة رقم ٣٨ ٠
(**) القصيدة رقم ٢٣ ٠
(١) انظر مقدمة الديوان ص٢٩ ٠

ونراه ملتزما بالأصول والتقاليد العربية فى عقابه لأبناء عمومته بنى عبدان بن سعد بن قيس بن ثعلبة، وإن كان قد تجاوز الرفق الــذى ينبغى أن يكون بين أبناء العمومة ، ويناشدهم بحق القرابة ألا ينسوا ما كان لأهل الشاعر من أياد عليهم .

وفى واحدة من القصائد يدلف شاعرنا إلى غرضه بــدون تقــديم راغبا فى أن يسفر عتابه عن إطفاء نار الخلافات بين بنى عبدان بــن سعد وبنى سعد بن ضبيعة قوم الأعشى، الذى قال :

يا لقــيسٍ لِمــا لقينــا الْعَامَــا ∴ ألِعَبْدٍ أعراضُنا أم عَلَــى مــا[1]

ليس عن بغضة حُــذافَ ولكــن ∴ كان جهلا بــذلكم وعُرامــا[2]

لم نطأكم يوما بظلم ولــم نهـــ ∴ تك حجابا ، ولم نُحِــلّ حرامــا

يا بنى المنذر بن عبدان والبطــ ∴ نة يوما قد تــأفِنُ الأحلامــا[3]

لِمْ أمرتم عبــدا ليهجــو قومــا ∴ ظالميهم من غير جُرم كراما[4]

والعتاب واضح فى أن الأعشى وقومه لم ينهضوا بظلم يستحقون بسببه الهجاء من جهنام الذى أمره بنو عبدان بهجاء سعد بن ضبيعة . قوم الأعشى، حيث إن السنوات الأخيرة من حياته قــد أقعدتــه عــن الحركة الكثيرة، سعيا وراء التكسب بالمدح، وشراء الخمــر، وســماع القيان ، والغزل المكشوف بالنساء .

---

(١) العبد : المقصود الشاعر جهنام خصم الأعشى، وكان ابن أمة .
(٢) حذاف : ترخيم حذافة، وهو جد جهنام، العرام: الشراسة .
(٣) البطنة : الشره ، أفن الرجل: ضعف رأيه، الأحلام: العقول .
(٤) من القصيدة رقم ٣٨ .

ويلاحظ أن الرد على الشعراء الآخرين وعتابهم والرد على حججهم ليس منهجا للأعشى ، ولا يمثل طريقة أو أسلوباً قوياً عنده في تعميق التجربة ومزج عناصرها، ولذلك اختار الأسلوب التقريرى في المن على أبناء عمومته بنى عبدان وهو أسلوب فيه من الإفساد أكثر مما فيه من الإصلاح الذى يعد هدفا أساسيا فى هذا اللون الشعرى لتجميع ما تشتت من أبناء القبيلة ٠

ثالثا : هجاء الخصوم والأعداء :

لا يقتصر دور الشاعر فى القبيلة الجاهلية على مدح رجالها، والافتخار بأيامها، ولكنه يتجاوز هذا الدور إلى الدفاع عنها بهجاء الخصوم والأعداء، والرد على شعرائهم ٠

وقد أعطى الرسول ﷺ الإذن لشاعره حسان بن ثابت بالرد على شعراء قريش الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ وأصحابه، وأحاله إلى أبى بكر الصديق؛ ليعرفه الأنساب ، وقال للرسول ﷺ إنه قادر بموهبته أن يستل الرسول ﷺ من قومه كما تسل الشعرة من العجين..

ونعود إلى الأعشى حيث كان واحدا من شعراء الجاهلية الذين يملكون ألسنة حدادا، لمواجهة الشاعر جهنام الذى كان يعادى الأعشى، ويتعصب لبنى عبدان، وبنى جحدر وهم جميعا من قيس بن ثعلبة ، ولم يسكت الأعشى، ولم يستسلم للشاعر المذكور، وكان لسانه قويا وأسلوبه عنيفا فى مواجهة الفرس؛ لدورهم فى زرع الفتنة بين القبائل العربية٠

وقد هتف ببعض القصائد قبل يوم ذى قار فأسهمت فـــى إذكـــاء القومية العربية، وقد استنفر رجال بكر بقصيدة وجهها إلى كسرى حين أراد منهم رهائن بسبب غارات بعض الأعراب على الســـواد(*) فـــى العراق مما كان واحدا من أسباب الحرب فى موقعة ذى قار ، قال:

من مبلغٌ كسرى إذا مـــا جـــاءه ∴ عَنّى مَآلِكُ مُخْمِشَاتٌ شُـــردا[١]

آليــتُ لا تعطيـــه مـــن أبنائنـــا ∴ رُهُنا فيفسدهم كن قـــد أفســـدا

حتى يُفيدك مـــن بنيـــه رهينـــةً ∴ نَعْشٌ ويرهَنَك السماكُ الفرقـــدا[٢]

إلا كخارجـــةَ المكلـــف نفســـه ∴ وابْنَىْ قبيصةَ أن أغيبَ ويشهدا[٣]

أن يأتياك بـــرُهْنِهم فهمـــا إذَنْ ∴ جُهِدَا وحُقّ لخائفٍ أن يُجْهدا[٤]

ويؤكد عدم الاستجابة لمطلب كسرى فى تقديم الرهائن له؛ حتـــى لا يتعرضوا للتلف، وأن ذلك مستحيل، كما نقول فى الأمثلة إن طلبـــه أبعد من نجوم السماء.

وقد جاءت الأبيات هنا فى صورة رفض لمطالب كسرى وهـــى استهزاء به وبقوة جيشه، ولم يكن الهجاء ذمـــا لصـــفات جســـمانية أو

(*) السواد : الأرض الخضراء بالعراق المتاخمة لجزيرة العرب التـــى لا زرع فيها ولا شجر (معجم البلدان جـــ٣ صـــ٢٧٢) .

(١) مآلك : رسائل. مخمشات: مغضبات، شردا: تأتى فى كل مكان لشهرتها.

(٢) نعش: سبعة كواكب، السماك: أحد السماكين النيرين، الفرقـــد: واحـــد مـــن الفرقدين وهما المتقدمان من بنات نعش .

(٣) فى البيت تقديم وتأخير أى إلا كخارجة المكلف نفسه أن أغيب ويشهدوا بنى قبيصة أن يأتياك ، يشهد .

(٤) من القصيدة رقم ٣٤ .

خلقية فالهدف من الهجاء بث روح الحماسة فى القبائل العربية قبل أن يكون موجها إلى كسرى ومطالبه الاستفزازية .

أما هجاء الأعشى لأبناء بكر والمنتسبين إليها فمختلف جـدا، ولا يكاد يذكر البيت أو البيتين في الهجاء حتى يتحول إلى الفخـر بقومـه باستثناء بعض المقطوعات القليلة العدد أو الأرجاز التى يتوجه بها فى غمرة انفعاله وغضبه كتلك التى قالها فى هجاء بنى قميئة بن سعد بـن مالك[١] وما عدا ذلك فإن هجاءه لبعض قومه يغلب عليه الفخر القبلـى الذى يكون الباعث عليه هو حبه لقومه وأبناء عشيرته، وهذه مجموعة من الأبيات قالها الأعشى في جهنام شاعر بنى عبدان ضـمن قصـيدة قصيرة قال فيها :

لقد سَفَرَتْ بنـو عبـدان بَيْنـاً ∴ فما شكروا بلأمى والقِـداح[٢]

إلـيكم قبـل تجهيـز القـوافى ∴ تزور المنجدين مع الريـاح[٣]

فمـا شـتمى بسـنُّوتٍ بزُبْـدٍ ∴ ولا عسـلٍ تصـفقه بـراح[٤]

ولكـن مـاء علقمـةٍ وسَـلْعٍ ∴ يُخاض عليه من عَلَق الذُبّاح[٥]

لأمـك بالهجـاء أحـقّ منـا ∴ لِما أبلتك من شَوْط الفضـاح[٦]

---

(١) انظر كتابنا (دراسات فى الأدب الجاهلى)ص١٥٧ .

(٢) سفر : خرج إلى السفر، بينا: فراقا، شكرت الدابة: سمنت، لأم: نسبة إلـى اللؤم ، القداح: مشاتمة أى لم يصيبوا شيئا من شتمى .

(٣) إليكم : تنحوا عنى: القوافى: والمقصود الهجاء .

(٤) السنوات: التمر ، صفق: الشراب حوله من إناء إلى إناء، الراح: الخمر .

(٥) العلقم :شديد المرارة ،السلع : نبات مر سام،العلق:الدم، الذباح : الذباح سام.

(٦) الفضاح : الفضيحة .

ألسنا المانعين إذا فزعنا ∴ وزافتْ فيلقٌ قبل الصباح[١]
سوامَ الحي حتى نكتفيه ∴ وجُودُ الخيل تعثرُ فى الرماح[٢]
ألسنا المقتفين بمن أتانا ∴ إذا ما حارَدَتْ خُورُ اللقاح[٣]

وقد ذكر أن بنى عبدان قد سبوه وما جنوا بسببه وشتمه خيرا، وحذرهم من مغبة ذلك ، وإلا بعث بهجائهم إلى كل مكان، وكيف ظنوا شتمه ثمرا بزبد، أو عسلا ممزوجا بالخمر، ولكنه علقم وسام ومميت٠

وكانت أم جهنام أحق منه بهذا الهجاء الذى تلقاه الأعشى؛ لأن مكان الشاعر مع قومه واضح معروف فى القتال، حين تتعثر جياد الخيل، وفى الجدب حين تضن النوق بالألبان حيث يفرجون كل كرب عندما يستحكم ويضيق ٠

وهكذا تحول الشاعر من هجاء جهنام إلى الفخر بقومه لحماستهم فى الحروب وكرمهم فى أيام القحط وغير ذلك من الخصال الحميدة٠

ومن الملاحظ من خلال القراءة لشعر الأعشى أنه دائم الحديث عن شؤون قبيلته، ولم ينصرف إلى ذاته إلا فى الأشعار التى مدح وتكسب بها، أو تغزل فيها، أو جعلها للحديث عن الخمر، وإذا ما اتجه إلى الهجاء كان بدافع العصبية القبلية، ولم تصرفه رحلاته عما ينبغى

---

(١) زافت : تمايلت ، الفيلق: الجيش، الصباح: الغارة ٠
(٢) السوام: الإبل ، اكتفا الإبل : أغار عليها فذهب بها، جود الخيل: السريع منها، والأبيات من القصيدة رقم ٧٣ ٠
(٣) اقتفى به: أكرمه، حاردت: انقطع لبنها، خور : جمع خوارة وهى الناقة الغزيرة الإبل ، اللقاح: الإبل واحدتها لقوح ٠

للشاعر الجاهلي من المشاركة في شؤون القبيلة، والإخلاص لقومه وعشيرته، وقد وظف الفنون الثلاثة المذكورة وهي الفخر والمدح والهجاء في خدمة هذه القضايا التي جعلت منه صوتا مدويا في اليمامة، وفي كل منطقة تقيم فيها عشائر بكر بن وائل.

ويعد شعره جزءا من الصورة الكاملة لعصره، لكنه لا يمثل شخصيته أو بمعنى أصح لا يمكن استخراج صورة دقيقة منه للشاعر الجاهلي.

ويبدو أن الأعشى في سنواته الأخيرة قد اكتسى ثوبا قبليا لم يكن مهموسا به تماما في المراحل الأولى من سني حياته.

وقد شغل النقاد بديانته، وهل اعتنق النصرانية أم لم يعتنقها، ذلك لأن الأفكار والرؤى الدينية في شعره كانت حجة لمن قال باعتناقه لها، أما إدراج اسمه ضمن كتاب شعراء النصرانية للويس شيخو فليس كافيا فما أكثر الشعراء الذين نظمهم شيخو في سلك كتابه ولم تكن لهم علاقة متينة بهذه الديانة، كما أنه لم يعتنق الإسلام، والقصيدة التي نسبت إليه في مدح الرسول ﷺ مشكوك فيها، ولكنها تكشف — إذا صحت — عن التيار الذي اجتاحه، ويتمثل في سعيه بالمدح للأعلام البارزة في عصره بدءا من رجال قبيلته وامتدادا إلى الرسول ﷺ.

المذهب الفني:

كتب الجمحي في طبقاته عن الأعشى ومذهبه الشعري، فقال:

" أكثرهم عروضا، وأذهبهم فى فنون الشعر، وأكثــرهم طويلــة جيدة، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا، كل ذلك عنده وكــان أول من سأل بشعره، ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه"(١).

تباين الألفاظ:

نعتقد أن التباين فى شعر الأعشى يعود بالدرجة الأولى إلى تنوع البيئة التى رضع منها لغته وثقافته، وقد عاش فى قلب الجزيرة العربية ونشأ فى اليمامة ، وكانت قبيلته من القبائل التى كثر فيها الشــعراء ، فضلا عن تنقلاته بين الأحياء العربية فى اليمن وفارس والعراق وبلاد الشام ، كما شارك فى حياة قبيلته مشاركة واضحة خاصة فى النصف الثانى من عمره ، ولم تظهر موهبته فى غرض واحــد مثــل أكثــر الشعراء الجاهليين، ولكن ديوانه احتوى عدة أغراض سبق الحديث عن ثلاثة منها .

وقد اتخذ الدكتور طه حسين من السهولة واللين فى ألفاظه دلــيلا على الانتحال فى شعره، ولكن الرأى الراجح هو أن اتجاهه إلى الغناء واخضاع شعره لأصوات القيان جعل السهولة ضرورة فــى الاتجــاه إليها، وهى بالطبع تختلف عن الضعف والابتذال .

وقد حسم هذه الإشكالية الدكتور ناصر الدين الأسد ، فقال :

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى، تحقيق محمود شاكر ص٦٥ .

" ولا ريب أن عذوبة اللفظ ولينه يختلفان اختلافا بعيدا عن ضعفه وابتذاله فقد ترق الألفاظ وتعذب ، ويبقى الأسلوب مع ذلك قويا، والعبارة جزلة، والشعر رصينا بليغا. وإنما ينبغى أن يكون احتكامنا فى نسبة الشعر إلى الشاعر مرده إلى ظهور شخصية الشاعر الفنية فى هذا الشعر، ووحدتها وانسجامها فى كل ما يقول، على أن تكون هذه الشخصية الفنية شاملة عامة تتسع للاختلافات الجزئية، مما يستدعيه اختلاف الموضوع، أو تغير الحالات النفسية عند الشاعر"[١].

لقد عاش أبو بصير فى مرحلة قريبة من العصر الإسلامى، ولم تكن حياته موغلة فى أعماق الجاهلية، وأسهمت تنقلاته الكثيرة وحبه للغناء فى أن يكون لنفسه مذهبا يكاد يكون خاصا به من حيث تنوع مستويات أسلوبه لتأثيره بتقدم المستوى الحضارى فى عصره، فهو يميل فى وصفه إلى المبالغة كشأن الشعراء الذين جاءوا بعده ، ومن ناحية أخرى مقدرته فى تصوير مشاعر المحبين وأحاسيسهم التى يحرصون على التعبير عنها بمقدرة فائقة .

وحدة المعنى :

والمراد منها تماسك الأبيات وترابطها حيث تأتى صياغة المعنى فى مجموعة من الأبيات تسهم كلها فى اكتمال الصورة الكلية، وربما كان ذلك من خلال التضمين الذى يعد فى الدراسة الموسيقية عيبا لكنه من وجهة أخرى يخدم المعنى الذى يكتمل فى بيت أو بيتين، أما تعدد

---

(١) القيان والغناء فى العصر الجاهلى: الدكتور ناصر الدين الأسد ص٢٥٠ (دار المعارف بمصر) .

المعانى فى القصيدة الواحدة فلم يكن ذلك خاصا بالأعشى، وإنما كـــان اتجاها عاما عند معظم الشعراء الجاهليين ،

اللون القصصى:

لقد تميز شعره بهذا الأسلوب الذى يسوق الغزل ممثلا فى صورة حوار يحكى فيه قصته مع صاحبته على غرار ما كان يصوغ امـــرؤ القيس حكاياته، ويذكر كيف أفلت من أعين الرقباء بكثير من التفاصيل، ثم يعود إلى ما كان يتحدث فيه، وقد كان هذا اللون محببا ومثيرا مـــن الأعشى وظهر واضحا فيما بعد فى شعر عمر بن أبى ربيعة، وكـــان هذا الاتجاه يرغم الشاعر على ممارسة نوع من الاستطراد الذى يبتعد فيه عن الموضوع الأساسى، ثم يعود إلى ما كان يتحدث فيـــه، ولكـــن هذا الاتجاه نراه فى شعر الغزل بصورة غير واضـــحة فـــى الفنـــون الأخرى، وبخاصة أشعار الفخر والمدح والهجاء التـــى كانـــت منـــاط الحديث فى هذه الصفحات ،

أهم المصادر والمراجع

١. الأصول الفنية للشعر الجاهلى د٠ سعد إسماعيل شلبى ، دار غريب للطباعة٠
٢. الأعلام : خير الدين الزركلى ــ دار العلم للملايين٠
٣. الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ــ طبعة دار الكتب المصرية٠
٤. أمراء الشعر ــ السيد فرج ــ الهيئة الصرية العامة للكتاب٠
٥. تاريخ الأدب العربى ــ كارل بروكلمان ــ دار المعارف بمصر٠
٦. تاريخ الأدب العربى ــ أحمد حسن الزيات٠
٧. تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى د٠ شوقى ضـــيف ــ دار المعارف بمصر٠
٨. تاريخ الأدب العربى ــ عمر فروخ ٠
٩. دراسات في الشعر الجاهلى ــ د٠ يوسف خليف ــ مكتبة غريب٠
١٠. ديوان الأعشى الكبير ــ شرح د٠ محمد محمد حسين ــ مؤسسة الرسالة
١١. الشعر الجاهلى ــ د٠ ابراهيم عبدالرحمن مكتبة الشباب ٠
١٢. الشعر والشعراء ابن قتيبة ــ تحقيق أحمد محمد شاكر٠
١٣. شعراء النصرانية ــ لويس شيخو مكتبة الآداب ٠
١٤. طبقات فحول الشعراء ــ محمد بن سلام الجمحـــى ــ تحقيـــق محمود محمد شاكر ٠
١٥. العمدة فى محاسن الشعر ونقده ــ ابن رشيق ــ دار الجيل٠
١٦. فى الأدب الجاهلى د٠ طه حسين ــ دار المعارف بمصر٠
١٧. القيان والغناء فى العصر الجاهلى د٠ ناصر الدين الأسد ــ دار المعارف بمصر ٠
١٨. معجم البلدان ــ ياقوت الحموى ــ دار صادر بيروت ٠

شعر الزهد عند أبى نواس

الزهد وأثره فى شعر أبى نواس :

النفس الإنسانية محيط زاخر عميق الغور . وقد ينظر إليه المشاهد فيخدع بالصفحة الأولى، ولا يدرى ما فى الأعماق، ولابد لمن يدرس شخصية تاريخية من أن يسبر غورها، ولا يكتفى بالنظرة العاجلة، إذ كثيراً ما تخدع عما وراءها.

فأبو نواس اشتهر بالخلاعة شهرة مستفيضة حتى أصبح علما على المجون ، وحتى استعاذ منه كثير من أرباب المثل العليا وذوى الحرص على سلامة الشخصية الإنسانية .

ومن يقرأ أخباره المستفيضة فى كتب التراث يؤمن بأن الرجل قد غمس فى المجون غمسا لم يدع فى جسمه نقطة خالية، ولكن الفاحص المتأمل يقرأ الديوان فيجد إلى تيار المجون الدافق شيئا مناقضا، يحس أثره الواضح فى الديوان، إذ أن فى ديوان أبى نواس بابا يسمى بالزهديات، وقد تبدو الزهديات غريبة على شاعر لابس الحياة، ودخل من أبوابها المستهترة، حتى لم يدع لنفسه المندفعة عتابا على النكول عن اللذة فى شتى ميادينها، فما بال هذه الزهديات تندفع من أعماق هذا المستهتر، أتكون خداعا مكشوفا يضحك به الشاعر على بعض الناس؟

إننا نعلم من حياته أنه لم يكن يبالى بسوء السمعة، بل ساعد على التهوين من مركزه الدينى مساعدة ينطق بها ديوانه، ولو لجأ إلى شئ من الخداع لمحا بعض ما يدل على هذا الاستهتار، ولكنه باهى به ،

وكرر القول فيه حتى أصبح العلم الأول فى هذا المضمار ، وإذن فشعر الزهد فى الديوان لم يكن خداعا، لكنه كان تعبيرا عن نفس ترفع إلى السماء فى بعض اللحظات ثم تسف إلى الأرض فى كثير من اللحظات، فتلج أبواب المجون ٠

فما الذى دعا الشاعر إلى هذا الزهد العازف ؟ لننظر فى حياته التى دونها المؤرخون ، فقد نجد بعض الجواب ..

إن الذين تحدثوا عن نشأة أبى نواس يذكرون أنه حفظ القرآن الكريم وجوده، وفهم معانيه فهما دقيقا، كما يذكرون أنه قرأ الحديث ورواه، ووصل من دراسته إلى مراميه التشريعية والخلقية، كما يذكرون أنه استمع فى حلقات العلم إلى كبار الفقهاء والمحدثين من أمثال حماد بن زيد وعبدالواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان ، هذا الجلوس إلى العلماء يدل على أنه فهم أصول الشريعة ، وألم بأخلاق الإسلام، وهذا ما يجعله مثقفا ثقافة دينية لا مجال للشك فيها، نعم إن الذهبى قد قال فى كتابه "ميزان الاعتدال فى نقد الرجال" : "أبو نواس الشاعر المفلق هو الحسن بن هانئ ، شعره فى الذروة، ولكن فسقه ظاهر، وتهتكه واضح، فليس بأهل أن يروى عنه إذ أن له رواية عن حماد بن سلمة وغيره" ٠

هذا الكلام يدل على أن أبا نواس لم يكن أهلا لرواية الحديث، وهذا ما نوافق عليه، لأن من أوضح شروط الراوى أن يكون ثقة صادقا حسن السمعة وهذا ما يتعذر إثباته لأبى نواس، ولكن عدم قبولنا

لروايته فى الحديث لا يمنع أنه ألم بالحديث وذكره وعرف مراميه الخلقية، كما أنه حفظ القرآن الكريم، وجالس الكبار من العلماء ، وهذا كله لابد أن يترك أثره فى نفسه، وإن كان مرفوض الرواية عند المحدثين. هذا الأثر هو الذى جعل نفسه منقسمة قسمين، فهو يستجيب إلى دواعى الهبوط، فيقبل على اللذات، ويعكف على الملاهى، ويسجل ذلك كله فى أبيات يضج لها الفقهاء ويعدونها نموذجا للفسق، ولكن نفسه الثانية التى روت الحديث، وحفظت القرآن، وجالست العلماء تثور عليه فى بعض أوقات هدوئه فيحاسب نفسه، ويدرك أنه اقترف من الآثام ما تقشعر له الأبدان، وإذ ذاك يستيقظ ضميره. ويشعر بفداحة موقفه فيتعاظمه الخطب، ولابد أن يعبر عن نفسه فى ساعة الندم فيتجه إلى الله اتجاه العابد الضارع ، وينشد من الشعر ما يكون ذا صدق وانفعال، لأنه تنفيس عن إحساس مكظوم ، أراد الشاعر أن يعبر عنه فى ساعة الندم فقال ما قال .

فالذين يذهبون إلى أن أبا نواس قد راءى فى حديثه عن الزهد : يجهلون أن النفس الإنسانية لا تستقر على حال واحد ، فهى ذات صعود وهبوط وذات انحدار وارتقاء وإذا زادت أوقات الانحدار والسقوط عن أوقات الارتفاع والسمو فليس معنى ذلك أن الشاعر قد أغفل هذه الساعات التائبة النادمة ، ولكنه أراد أن ينطق بما يخفف عنه آلامه فلجأ إلى التوبة الصارخة والندم الضارع حين قال الزهديات عاكفا عن ملذات الحياة، ولا يمنع ذلك أن يعود إليها حين تنتهى ساعة الندم ، فينظم فى اللهو والمجون .

على أن أبا نواس لم يكن بدعا فى تقلبه بين الزهد والمجـون إذ كان له نظراء سلكوا مسلكه صعودا وانحدارا، وقد أشار الدكتور زكى مبارك إلى بعضهم حين قال فى فصل أدبى عقده تحت عنوان (كـلام الشعراء فى الزهد) [١] نذكر فى هذا الفصل أشياء من كلام الشعراء فى الزهد، ولا نقول الصوفية، فلهؤلاء وجهة غير وجهة أولئك ، إنما نريد الشعراء الذين عرفوا فى بعض أدوار حياتهم بـالمجون، ثـم غـزتهم المعانى الروحية فنقلتهم من حال إلى حال ٠

والماجنون حين يزهدون يصبح شعرهم قيثارة تندب بأوتار الندم والخوف، ويمسون ولهم شمائل تنفح بالوداعة واللين، ومن أمثلة ذلـك حديث آدم بن عبدالعزيز الأموى ، وكان ماجنا منهمكا فى الشـراب، وكان يصحب يعقوب بن الربيع أخا الفضل بن الربيع، وكان يعقـوب أيضا من أهل الخلاعة والمجون ، ثم تاب آدم بن عبدالعزيز ونسـك. واتفق أن استأذن على يعقوب بن الربيع، وكان يشرب، فقال يعقوب:

أرفعوا الشراب فإن هذا قد تاب وأحسبه يكره أن يحضره! فرفع الشراب وأذن له، فلما دخل قال : إنى لأجد ريح يوسف؟ فقال يعقـوب : هو الذى وجدت، ولكنا ظننا أن يثقل عليك لتركك له قال: إى والله ، وإنه ليثقل على ذاك ..! .. قال : فهل قلت فى ذلك شيئا منذ تركتـه؟ قال: نعم! وأنشد :

ألا هل فتى عن شربها اليوم صـابر .:. ليجزيه عن صبره الغد قـادر

(١) " التصوف الإسلامى " جـ١ صـ٩٠ ٠

شربت فلما قيل لـيس بنـازع ∴ نزعت وثوبى من أذى اللوم طاهر

على أننا حين نعرض لما قاله أبونواس فى الزهـد نقـف علـى أغراض شتى فى هذا المضمار :

١ - فأبو نواس قد أكثر من ذكر الموت إكثارا يدل على أنه دائم التذكر له، وشاعر حساس مثل أبى نواس لابد أن يتجـه بعقلـه إلـى التفكير فى مآله ، وبخاصة حين يعلم أنه أسرف فـى الـذنوب ، وأن الموت سيكون الباب الأول لحسابه على ما أسرف ، فهو إذن بالنسـبة إليه خطر ماحق وشر عظيم ــ يفكر أبو نواس فى الوجـوه القبيحـة فيعلم أن مصيرها إلى الفناء ، كما يتأمل فى العقول الراجحة فيعلم أن رجحانها لا ينجيها من الهلاك ، فلابد من الرحيل إلـى منـزل نـائى المحل سحيق ، إذ أن الناس من لدن آدم إلى عهد ابى نواس ما فـيهم إلا هالك وابن هالك ، وما هذه الدنيا إلا عدو للإنسان، وإن قابلته بوجه صديق ، تلك خواطر حارة عبر عنها الشاعر الصادق حين قال:

أيا رب وجهٍ فى التراب عتيـق ∴ ويا رب حسن فى التراب رقيق

ويا رب حزم فى التراب ونجـدة ∴ ويا رب رأى فى التراب وثيق

أرى كل حى هالكا وابن هالـك ∴ وذا نسب فى الهالكين عريـق

فقل لقريب الـدار إنـك ظـاعن ∴ إلى منزل نائى المحل سـحيق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشـفت ∴ له عن عدو فى ثياب صـديق

والبيت الأخير قد ضرب مضرب المثل، ورواه الناس فى مجـــال الاستشهاد حتى قال المأمون فى بعض ما قال: لو سئلت الــدنيا عــن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس فى قوله:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّــفت ∴ له عن عدو فى ثياب صــديق

وإذا كان أبو العتاهية قد أكثر من الموت فى أبيات سهلة سلسة يفهمها العامة للوهلة الأولى، ليسر مأخذها ووضوح أسلوبها، فإن أبا نواس قد جاراه فى هذه المضمار فى أكثر ما قال عن الموت . وتعليل هذه السهولة واضح، لأن الذى ينظم فى الموت يعمد إلى الحقائق الواضحة، إذ ليس المجال مجال تظاهر بالإبداع وجودة التشبيه وحسن الاستعارة، لأن صدق الإحساس وقوة العاطفة يكفيان فى إلهاب القارئ وإشعاله حين يجد حقيقة الموت التى يهابها ماثلة فى شعر صادق لا مجال للبس فيه.

إن أبا نواس فى بعض مقطوعاته عن الموت يتجه إلى بنى الدنيا فيصفهم بالنقص والضعف والخور واختلاف الطباع، مع الانهماك على اللذات ناسين أن يتساءلوا عمن كان قبلهم أين ذهبوا؟ وماذا صنع بهم الموت حين أخذهم أخذا سريعا يسبق اللمح والبصر، وقد نقلوا من القصور إلى القبور، حيث لا نضرب عليهم القباب ، ولا يتمتعون باللهو والسمر، بل يجدون أنفسهم أمام حساب دقيق لا ينجى منه غير رحمة الله ومغفرته. كل ذلك عناه الشاعر حين قال[١]:

يا بنى النقص والعبَرْ ∴ وبنى الضعف والخَوَرْ

وبنى البعد فى الطبا ∴ ع على القرب فى الصور

والشكول التى تبا ∴ ين فى الطول والقصرْ

أحتساءَ من الحرا ∴ م، وختما على الضَّرر ؟!

---

(١) الديوان ص٦١٢ .

أيـــن مـــن كـــان قـــبلكم ∴ مـــن ذوى البـــأس والخطـــر
ســـائلوا عـــنهم المـــدا ∴ ئـــن واســـتبحثوا الخبـــر
ســـبقونا إلـــى الرحيـــ ∴ ـــل ، وإنـــا علـــى الأثـــر
مـــن مضـــى عبـــرة لنـــا ∴ وغـــداً نحـــن معتبـــر
إن المـــوت أخـــذة ∴ تســـبق اللمـــح بالبصـــر
فكـــأنى بكـــم غـــداً ∴ فـــى ثيـــاب مـــن المـــدر
قـــد نقلـــتم مـــن القصـــو ∴ ر إلـــى ظلمـــة الحفـــر
حيـــث لا تضـــرب القبـــا ∴ ب علـــيكم ، ولا الحجـــر
حيـــث لا تظهـــرون فيـــ ∴ ـــها للهـــو ولا ســـمر
رحـــم الله مســـلما ∴ ذكـــر الله فـــازدجر
غفـــر الله ذنـــب مـــن ∴ خـــاف فاستشـــعر الحـــذر

٢ - والذى يتحدث عن الموت لابد أن يذم الـدنيا، وأن ينظـر إليها نظرة مريبة . وانهماك أبى نواس فى اللذات قد يكون انتحـارا لا شعوريا يقصر أجله ويبعده عن هذه الحياة، فأبو نواس يحقـر الـدنيا، وهو يعلم أن النفس رغم حقارة هذه الحياة مشغولة بها، وأن الدنيا دائما مولية لا تستحق أن يعاش بها ، فضلا عن أن يتكبر فيها متكبر ، ومـا هو إلا جلد على عظم ولكنه يثنى على نفسه، ويرضى بسـيرته فـى الحياة ، وهو خادم للدنيا إذا ضعفت همته فلم تسم إلى ما هو أرقى من الحياة، على أنه يأثم ويذنب ولا يخاف من العاقبة حين يحيق الفناء٠

لقد صور أبونواس حالة الشغل الشاغل للنفس بالدنيا على حقارتها فقال[1] :

لا تفرغُ النفسُ من شغل بدنياها ∴ رأيتُها لم ينلها من تمنَّاها

إنا لنَفْسٌ فى دنيا مولية ∴ ونَحْنُ قد نكتفى منها بأدناها

حذرتُك الكبر لا يعلقك ميسمُهُ ∴ فإنه ملبسٌ نازَعْتَهُ اللهَ

يا بؤس جلْدٍ على عظْم مخرقةٍ ∴ فيه الخروق إذا كلمتَه تاها

يرى عليك به فضلا يبين به ∴ إن نال فى العاجل السلطانَ والجاها

مُثْنٍ على نفسه، راض بسيرتها ∴ كذبْتَ يا خادمَ الدنيا ومولاها

إنى لأمقتُ نفسى عند نَخْوَتِها ∴ فكيف آمنُ مقتَ الله إياها

أنت اللئيم الذى لم تعدُ همته ∴ إيثارَ دنيا إذا نادتْهُ لباها

يا راكبَ الذنب قد شابت مفارقُه ∴ أما تخافُ من الأيام عقباها

٣ – فإذا تركنا ما ذكره أبو نواس عن الموت ولدينا إلى منحى آخر من مناحى الزهد، فإننا نجد مناجاته وتضرعاته الإلهية ذات صلصلة رنانة فى ديوانه إذ تصور ابتهاله الصادق إلى ربه. وجنوحه إلى التوبة، واتساع آماله فى الغفران ، إذ أن الإنسان مهما كبر ذنبه فعفو الله أكبر من هذا الذنب، على أنه ريشة فى مهب القدر، ولن يأتى إلا ما قضى الله عليه وقدر .

---

(١) الديوان ص٦١٣ .

لنستمع إلى أبى نواس مخاطبا نفسه بقوله[١]:

يـــا نـــواس تـــوقر ∴ وتجمـــل ، وتصـــبر

ســـاءك الـــدهر بشـــئ ∴ وبمـــا ســـرك أكثـــر

يـــا كبيـــرَ الـــذنب عفـــواً ∴ لله مـــن ذنبـــك أكبـــر

أكبـــر الأشـــياء عـــن أصغـــ ∴ ـــر عفـــو الله أصـــغر

لـــيس للإنســـان إلا ∴ مـــا مضـــى الله وقـــدر

لـــيس للمخلـــوق تدبـــ ∴ ـــير ، بـــل الله المـــدبر

وأقوى من هذه المقطوعة ما قاله أبـو نـواس مخاطبـا ربـه، ومصورا ما يحسه من فداحة ذنبه وعظم زلته، على أنه مع هـاتين لا يعدم رجاءه فى عفو الله لأنه مسلم يؤمن بربه، يقول أبونواس[٢]:

يا رب إن عظُمت ذنوبى كثـرة ∴ **فلقد علمت بأن عفوك أعظـم**

إن كان لا يرجـوك إلا محسـن ∴ **فبمن يلوذ، ويستجير المجـرم**

أدعوك رب كما أمرت تضـرعا ∴ **فإذا رددت يدى فمن ذا يـرحم**

مالى إليـك وسـيلةٌ إلا الرجـا ∴ **وجميل عفوك ... ثم إنّى مسلم**

أما المناجاة الرائعة التى قالها أبونواس فى حجه فهى من أخـف الشعر وأعذبه، ونحن نعلم أن أبا نواس قد ذهب يحج من أجل حبيبتـه (جنان) إذ تعذر عليه لقاؤها فى بغداد، ثم علم أنها ستحج مع مولاهـا

---

(١) الديوان ص٦٢٠ .

(٢) الديوان ص٦١٨ .

فصمم على أن يسير وراءها، وفى هذا ما جعل بعض الباحثين يشك فى صدق هذه المناجاة التى قالها الشاعر مخاطبا ربه وهو يلبى ويهلل، ولكننا إذا دققنا فى الأمر نجد أن الشاعر وإن كان قد ذهب إلى الحج من أجل (جنان) فإن رؤيته طوائف الملبين وجموع الناس ينسلون من كل فج عميق إلى بيت الله مهللين مكبرين هذه الرؤية قد جعلته يتجه إلى ربه صادقا مخلصا آملا أن يغفر له ذنوبه العديدة، وقد ألهمه جو التكبير والتلبية أن يفصح عن مشاعره المتوثبة فى المناجاة الرقيقة. قال[1] :

إلهنا ما أعدلك ∴ مليكَ كل من ملك

لبيكَ قد لبيتُ لك

لبيك إن الحمد لك ∴ والملك ، لا شريك لك

ما خاب عبدٌ سألك ∴ أنت له حيث سلك

لا لوك يا رب هلك

لبيك إن الحمد لك ∴ والملك لا شريك لك

كل نبى وملك ∴ وكل من أهلّ لك

وكل عبدٍ سألك ∴ سبح أو لبى فلك

لبيك إن الحمد لك ∴ والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك ∴ والسابحاتِ فى الفلك

---

(١) الديوان ص٦٢٣ .

علـــى مجـــارى المنســـلك

لبيـــك إن الحمـــد لـــك ⁖ والملـــك لا شـــريك لـــك
أعمـــل وبـــادر أجلـــك ⁖ واختـــم بخيـــرٍ عملـــك
لبيـــك إن الحمـــد لـــك ⁖ والملـك .. لا شـريك لـك !!

ونحن نتساءل هل لجأ أبونواس إلى الزهد فى آخر حياته أو أنـه كان طيلة عمره الشعرى يتردد بين الزهد والمجون ؟

يقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق فى الرد على ذلك[1] :

" يرى بعض من ترجموا لهذا الشاعر الكبير أنه فى شـيخوخته انصرف عن لذات هذا العالم، ووجه فنه الشعرى وجهة الزهد، بعد أن كان متجها إلى الخمر والغزل والمجون ، وإلى المـدح والهجـاء. ولا يعدم أصحاب هذا الرأى شواهد تؤيد رأيهم فـى بعـض مـا يـروى المؤرخون من أخبار أبى نواس فى آخر حياته وفى بعض ما روى من أشعاره ، فمن شعره قوله :

انقضت شرتى فعفـت الملاهـى ⁖ إذرمى الشيب مفرقى بالـدواهى
ونـهتنى النهى فملت إلـى العـذ ⁖ ل وأشفقت مـن مقالـة نـاه
أيها الغافل المقيم علـى اللهـ ⁖ ـو ولا عذر فى المعاد لسـاه
لا بأعمالنـا نطيـق خلاصـا ⁖ يوم تبدو السمات فوق الجبـاه
غير أنا على الإساءة والتفريـ ⁖ ـط نرجو لحسـن عفـو الإلـه

---

(١) "أبو نواس حياته وشعره" المكتبة الحديثة للطباعة والنشر بيروت ص١٠ .

وفى ترجمة أبى نواس فى كتاب تاريخ بغداد :

" ... قال حدثنا الربيع بن سليمان، قال سمعت الشافعى يقول: دخلنا على أبى نواس وهو يجود بنفسه ، فقلنا: ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ∴ بعفوك ربى،كان عفوك أعظما

فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تَـزَلْ ∴ تجود وتعفو منة وتكرما

حدثنا على بن محمد بن زكريا قال: دخلت على أبى نواس وهو يكيد بنفسه فقال : تكتب؟ قلت: نعم. فأنشأ يقول :

دب فى الفناء سفلا وعلوا ∴ وأرانى أموت عضوا فعضوا

ذهبت شرتى بجدة نفسى ∴ وتذكرت طاعة الله نضوا

ليس من ساعة مضت بى إلا ∴ نقصتنى بمرها بى جزوا

لهف نفسى على ليال وأيا ∴ م سلكتهن لعبا ولهوا

وأسأنا كل الإساءة يا ر ∴ ب فصفحا عنا إلهى وعفوا

هذا ما نقله الأستاذ مصطفى عبدالرازق عن الخطيب البغدادى مما يؤيد وجهة التوبة فى أيام الشيب، لأن النصوص التى نقلها تنطق بذلك، فهو يقول : إن شرته قد انقضت لأن الشيب قد رمى الدواهى فى مفرقه، وهو يقول : إن الفناء قد دب فيه عضوا فعضوا، وهذان النصان قالهما فى أخريات حياته قطعا، ولكن الديوان يروى من

النصوص ما لا يدل على أنه قالها فى آخر الحياة مثل المقطوعة الأولى التى استشهدنا بها فى مطلع هذا البحث، وأولها :

أيا رب وجه فى التراب عتيق ∴ ويا رب حسن فى التراب رقيق

ومثل قوله[١]:

يا من أقام على خطيئته ∴ سدت عليك مذاهب الرشد

منتك نفسك أن تتوب غدا ∴ أو ما تخاف الموت دون غد

الموت ضيف فاستعد له ∴ قبل النزول بأفضل العدد

واعمل لدار أنت جاعلها ∴ دار المقامة آخر الأمد

يا نفس هو ردك الصراط غدا ∴ فتأهبى من قبل أن تردى

ما حجتى يوم الحساب إذا ∴ شهدت على بما جنيت يدى

٤ – أمعن النواس فى التأمل والتفكر عندما أقبل خريف عمره، فنظر إلى ماضيه فوجده عامرا بالأوزار والآثام ، فأناب إلى ربه، وندم على تقصيره وتحسر على أيامه الضائعة فقال: فى مطلع قصيدة يمتدح بها الأمين[٢]:

يا دارُ ما فعلت بك الأيام ∴ ضامتك والأيام ليس تُضَام

عَرَمَ الزمانُ على الذين عهدتهم ∴ بك قاطنين والزمانِ عُرام[٣]

أيامَ لا أغشى لأهلكِ منزلا ∴ إلا مراقبةً على ظلام

(١) أبو نواس حياته وشعره ص٨ ٠
(٢) الديوان ص٤٠٧ ٠
(٣) عرام الزمان : حدته وشراسته ٠

ولقد نهزت مع الغواة بـدلوهم ∴ وأسمْتُ سرّحَ اللهو حيث أساموْا
وبلغتُ ما بلــغ امــرؤ بشــبابه ∴ فإذا عصــارة كــل ذاكَ أثــامُ

وقال نادما وناصحا أيضا[1]:

أيــا مــن بــين باطيــة وزق ∴ وعود فى يدى غــان يغنــى[2]
إذا لم تنه نفســك عـن هواهــا ∴ وتحسن صونها فإليــك عنــى
فإن قد شبعت مــن المعاصــى ∴ ومن إدمانها ، وشــبعن منــى
ومن أسوا وأقــبح مــن لبيــب ∴ يرى متطربا فى مثــل ســنى

وقد أقر بذنبه، وأعلن ندمه وأسفه، فقال[3]:

فقد ندمت على ما كان من خَطَلٍ ∴ ومن إضاعة مكتوب اليواقيــتَ
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كمــاً ∴ عفوت ياذا العُلا عن صاحب الحوتَ

فهذه النفس التى شبعت من المعاصى ، وأمعنت فى الجمــوح لا يستبعد منها أن تثوب وتؤوب ، وتقر بالوزر، وتندم علــى التقصــير؛ ولذلك قال أحد الباحثين فى ندم أبى نواس: "وعنصر الندم والاســتغفار هو الغالب فى أشعاره الزاهدة، ومعانيه فى هذا الجانب وليــدة الــنفس

---

(١) الديوان ص١٧ .
(٢) الغانى : المقيم .
(٣) الديوان ص٤٠ .

المضطربة، فكانت جديدة فى بابها لم يسبقه بها أحد[١] ولقد كره نفسه ، ولامها على تقصيرها وعكوفها على اللذات فقال[٢]:

ألم ترأنى أبحث اللهــو نفســى ∴ ودينى،واعتكفت على المعاصى
كــأنى لا أعــود إلــى مَعــاد ∴ ولا أخشى هنالك من قِصــاص

ثم نتساءل: هل الندم الذى أعلنه وأذاعه أبو نواس نــدم صــادق وإقرار مخلص بالذنب؟

ويجيب عن ذلك الأستاذ عباس العقاد حيث يرى أن التوبة لم تكن مستمرة، بل كانت مترددة فى مراحل حياته الأخيــرة، وينفــى عنــه الزندقة التى غرق فى لجتها كثيرون من شعراء عصره؛ ويــرى أبــا نواس كان يتردد فى التوبة لضعفه عن مقاومة الغواية والفجور ، ولكن هذه التوبة المترددة لم تلبث أن امحت ، واستقرت فــى باطنــه توبــة نصوحا مخلصة، تردد صداها فى كثير من شعر الزهد الذى قاله فــى خريف عمره بخاصة، قال العقاد[٣]: ويسرى هذا على شعره كله فــى التوبة والعظة ، ما خلا نتفا يسيرة من نظمه فى أخريات عمــره، قــد تستشف منها خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع، ولم تأت هــذه التوبة إلا بعد مطاولة ومراوغة يستبقى بهما بقية الشباب :

كــان الشــباب مطيــة الجهــل ∴ ومحسن الضــحكات والهــزل

---

(١) أدب الزهد فى العصر العباسى د. عبدالستار مولى / الهيئة العامة .
(٢) الديوان ص٦٢٢ .
(٣) أبو نواس ص١٥٧ .

كان الجمـــال إذا ارتـــديت بـــه ∴ ومشيت أخطر صـــيت النعـــل

كـــان المشـــفع فـــى مآربـــه ∴ عنـــد الفتـــاة ومـــدرك النبـــل

والباعث النـــاس قـــد رقـــدوا ∴ حتـــى أبيـــت خليفـــة البعـــل

والآمـــرى حتـــى إذا عزمـــت ∴ نفـــس أعـــان يـــدى بالفعـــل

والآن صـــرت إلـــى مقاربـــة ∴ وحططت عن ظهر الصبار حلى

والـــراح أهواهـــا وإن رزأت ∴ بلغ المعـــاش وقللـــت فضـــلى

فالشاعر يعترف بتأخر توبته المترددة عند شبابه، والتى استقرت وهدأت بعد انطفاء جذوة الشباب •

ويقول العقاد[1] : وكلمة الخير التى تقال صدقا فى الشاعر: أن الآفـــة عنده إنما هي آفة الضعف والشعور المغلوب، وليست آفة الشر والأذى •

٥ – ومن الموضوعات التى دار حولها شعر الزهد عنـــد أبـــى نواس: الخوف من الله، والتأكيد على مراقبته لعباده حتى يخلصوا لـــه، ويجتهدوا فى طاعته، ويبتعدوا عن غرور الدنيا ومفاتنها ، فإنها تقبـــل على الإنسان، وتسرف فى إقبالها ثم تهب عليه، وتنتقم منـــه ، ولـــذلك قال أبو النواس شعرا كثيرا فى هذا الاتجاه بالذات •

وله قصيدة طويلة، من أعظم ما قال فى شعر الزهد، وقد ذكرنـــا منها بعض الأبيات ، وها نحن نذكر بعضا آخر ، قال :

يا نفـــس خـــافى الله واتئـــذى ∴ واسعى لنفسك ســـعى مجتهـــد

---

(١) أبو نواس ص١٦٢ •

من كـان جمـع المـال همتـه ∴ لم يخل من غـم ومـن نكـد

يـا طالـب الـدنيا ليجمعهـا ∴ جمعت بـك الآمـال فاقتصـد

وأراك تركـب ظهـر مطمعـة ∴ تطوى بهـا بلـدا إلـى بلـد

لـو لـم تكـن لله متهمـا ∴ لم تمس محتاجـا إلـى أحـد

فاقصد، فلسـت بمـدرك أمـلا ∴ إلا بعـون الواحـد الصـمد

والقصد أحسن ما عملـت بـه ∴ فاسلك سبيل الخيـر واجتهـد

والحرص يفقـر أهلـه حسـدا ∴ والرزق أقصى غايـة الحسـد

ولعـل مـن يشـجى بغصـته ∴ إلا ذوو الآمـال والعـدد

ولـرب سـاع فـات مطلبـه ∴ لم يؤت من حزم ومـن جلـد

ومشمر فـي الـرزق خطوتـه ∴ ظفـرت يـداه بمرتـع رغـد

أو ما تـرى الآجـال راصـدة ∴ لتحول بين الـروح والجسـد

وربما كان طول نفس الشاعر في هذه القصيدة دليلا على أنها من بنات أفكاره بعد أن شبع من الدنيا، وأقلع عن شهواتها، وأيقن بمراقبة الله له، فيزداد خوفه، واتعظ ضميره بعد غفوته الطويلة. وقال أيضا[1]:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ∴ خلوت، ولكن قل علي رقيـب

ولا تحسـبن الله يغفـل سـاعة ∴ ولا أن ما تخفى: عليه يغيـب

لهونا بعمر طال حتـى ترادفـت ∴ ذنوب علـى آثـارهن ذنـوب

---

(١) الديوان ص٦١٥ .

وربما كان إحساسه بمراقبة الله له من أقوى الدوافع على تزهــده وعودته إلى ربه بالعمل الصالح والإيمان الصادق •

٦ – ولهذا الزهد جنح النواسى إلى الطريق السوى فـدعا إلــى حسن الإعداد للآخرة، وذلك بالتقى والعمل الصالح ، وحث على تــرك الشهوات ومجانبة المعاصى، فقال[1] :

ســـبحان عــــلام الغيـــوب ∴ عجبـــا لتصـــريف الخطـــوب
تغـــدو علـــى قطـــف النفـــو ∴ س وتجتنـــى ثمـــر القلـــوب
حتـــى متـــى يـــا نفـــس تغـــ ∴ تـــرين بالأمـــل الكـــذوب
يـــا نفـــس تـــوبى قبـــل أن ∴ لا تســـتطيعى أن تتـــوبى
واســـتغفرى لـــذنبك الـــ ∴ رحمـــن غفـــار الـــذنوب
إن الحـــــوادث كالريـــــا ∴ ح عليـــك دائمـــة الهبـــوب
والمـــوت شـــرع واحـــد ∴ والخلـــق مختلفـــوا الضـــروب
والســـعى فـــى طلـــب التقـــى ∴ من خيـــر مكســـبة الكســـوب
ولقلمـــا ينجـــو الفتـــى ∴ بتقـــاه مـــن لطـــخ العيـــوب !

ومما قاله عن يوم القيامة، محذراً من محنته وقوة آفاته، ليتـذكر الأحياء ويعتبروا بما جرى للأموات :

وهـــذى القيامـــة قـــد أشـــرفت ∴ وتريك مخـــاوف فزعاتهـــا[2]

---

(١) الديوان ص ٦١٤ •
(٢) الديوان ص ٦١١ •

وقــد أقبلــت بمواعيــدها ∴ وأهوالهــا فــارع لوماتِهــا

وإنــى لفــى بعــض أشــراطها ∴ وآياتهــا ، وعلاماتهــا

تبــارك رب دحــا أرضــه ∴ وأحكــم تقــدير أقواتِهــا

وصــيرها محنــة للــورى ∴ تغــر الغــوى بغزواتهــا

فمــا ترعــوى لأعاجيبهــا ∴ ولا لتصــرف حالاتهــا

فنــافس فيهــا وأيامهــا ∴ تــردد فينــا بآفاتهــا

أمــا يتفكــر أحياؤهــا ∴ فيعتبــرون بأمواتهــا

وكان هذا الشعر نتيجة لاعتراف أبى نواس بذنبه، فقد أسرف فى المعاصى بشتى صنوفها، ونهج ــ إلى فترة ــ نهج الزنادقة ، فحبس أكثر من مرة، وعوقب أشد العقاب ، أو شك معه على الموت ، وصاحب المجان وأهل الفجور وأحل ما حرم الله وتغزل بالمذكر، ثم ها هو ذا يقر بذنبه، ويتوب إلى ربه ويعمل للآخرة ، ويذكر بيوم القيامة ، ويذم الدنيا، وينفر من المعاصى، ويحذر من الشهوات ، ويتزهد بشعر أثار الحيرة بين الأدباء والنقاد قديما وحديثا، وقد ذكرنا منه كثيرا من النماذج والأمثلة على اختلاف صنوفه وألوانه ٠

بين أبى العتاهية وأبى نواس :

عاش أبو العتاهية فى عصر أبىنواس،حيث ولد فى عام١٣٠هـ، وتوفى فى عصر المأمون ، أى أن الرجلين قد عاشا حياتهما فى القرن الثانى للهجرة ، وأقاما بالعراق ؛ واتصلا ببعضهما ، مما جعل الناس يتحدثون عنهما ويوازنون بينهما إذ أنهما قد اتفقا فى أمور كثيرة واختلفا

أيضا فى أمور كثيرة، مما يشجعنا على الموازنة بصــورة مختصــرة تتفق مع حجم هذه الدراسة ، وفى نطاق لون واحد، وهو شعر الزهد ٠

ولقد بدأ العتاهى حياته بالمجون ، واتهم بالزندقة، وعندما اتجــه إلى الزهد تعقبه كثرة من معاصريه، وشككوا فى زهده، وذكروا بعض أخباره التى تتوه معها الحقيقة،ولهذا قال الدكتور زكى مبارك: "والكلام عن بخل أبى العتاهية وشحه ومنعه الزكاة كثير جدا، يجده القارئ فى الأغانى وغيره، والأقاصيص المروية عنه بعضها صــحيح وبعضــها منحول، ولكنها فى جملتها تدل على أن معاصريه تلقى مســلكه فــى الزهد بالفخر والسخرية، واستكثروا عليه أن يكون من أهــل الحكمــة والدين"[١].

والذى يتابع ما كتب عنه سوف يرى ما أغرم به معاصروه مــن تعقب أخباره، لحمل الناس على الشك والارتياب فى تنسكه وزهده فقد اتهموه بالبخل والشح على نفسه، فلا يكون بذلك من الزاهدين ، وعلى كل ، فقد ترك أبوالعتاهية حياته الأولى وانصرف إلى الزهــد بســبب فشله فى حب (عتبة) محبوبته، أو لانصراف الدنيا عنــه، ولإحساســه بالحرمان منها ، أو لأسباب أخرى، على أن الرجل قد ظل ما يقــرب من ثلاثين عاما يتغنى بكأس الموت التى تدور على سائر الخلق، ولزم جانب التدين ، وترك سيرته الأولى وجعل من شعر الزهد فنا مستقلا ، فأجاد فيه وأكثر منه ، ودفع عن نفسه تهمة الزندقة، فقال فيما يرويــه

(١) التصوف الإسلامى جــ١ ص٦٧ ٠

أبو الفرج الأصفهاني : "زعم الناس أني زنديق، والله ما ديني إلا التوحيد. فقلنا له: فقل شيئا نتحدث به عنك، قال :

ألا إننا كلنا بائد ∴ وأي بني آدم خالد ؟
وبدؤهم كان من ربهم ∴ وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإله ∴ أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ∴ وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شئ له آية ∴ تدل على أنه الواحد[١]

ومن شعره في الزهد قوله :

هب الدنيا تساق إليك عفوا ∴ أليس مصير ذاك إلى الزوال[٢]
فما ترجو بشئ ليس يبقى ∴ وشيكا ما تغيره الليالي
وحقك كل ذا يفنى سريعا ∴ ولا شئ يدوم مع الليالي

وقد أطال أبو العتاهية في شعره عن الحياة والموت ومصير الإنسان ، وكان يتضرع إلى الله مع الأسف والندم على ما اقترف من الذنوب والآثام، قال :

إلهي لا تعذبني فإني ∴ مقر بالذي قد كان مني[٣]
ومالي حيلة إلا رجائي ∴ وعفوك إن عفوت وحسن ظني

---

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص١٢٢ طبعة دار صادر .
(٢) الديوان ص٢٣٨ .
(٣) الديوان صـ٤٢٥ .

فكم من زلة لـــى فـــى البرايـــا ⁂ وأنت علـــى ذو فضـــل ومـــن

إذا فكـــرت فـــى نـــدمى عليهـــا ⁂ عضضت أناملى وقرعت سنى

يظن الناس بـــى خيـــرا وإنـــى ⁂ لشر الناس، إن لم تعف عنـــى

وهذا آخر ما قاله أبو العتاهية من شعر فى مرضه الـــذى مـــات فيه. ومما قاله فى الاستعداد للموت والعمل ليوم الرحيل :

يـــا نفـــس قـــد أزف الرحيـــل ⁂ وأظلـــك الخطـــب الجليـــل[1]

فتـــأهبى ، يـــا نفـــس ، لا ⁂ يلعـــب بـــك الأمـــل الطويـــل

فلتنـــــــزلن بمنـــــــزل ⁂ ينســـى الخليـــل بـــه الخليـــل

وليـــــركبن عليـــــك فيــــــ ⁂ ــــه عـــن الثـــرى ثقـــل ثقيـــل

قـــرن الفنـــاء بنـــا، فمـــا ⁂ يبقـــى العزيـــز ، ولا الـــذليل

لا تعمـــــر الـــــدنيا فليـــــ ⁂ ـس إلـــى البقـــاء بهـــا ســـبيل

وقد كثر شعر أبى العتاهية، ومعظمه فى الزهد الذى اتجه بالكثير منه إلى الموت محذرا من رهبته، ومنبها إلى شـــموله لســـائر الخلـــق ونزوله بالعباد .

ويتفق أبو نواس مع أبى العتاهية فى اتجاههما إلى شعر الزهـــد بعد أن أسرفا فى المجون، وأقبلا على الدنيا، واتهما بالزندقة. على أن أبا العتاهية قد اتجه إلى الزهد فى مرحلة متقدمة من عمـــره فاســـتمر يلهج بالنسك والتوبة والتزهد ما يقرب من ثلاثين عاما ، ولهـــذا كثـــر

---

(١) الديوان صــ٣٥٧ .

شعره فى الزهد كثرة لا يوازن بها ما قاله أبونواس فى خريف عمره من شعر الزهد الذى يحتل بابا واحدا فى ديوانه ٠

ومع قلة الشعر الزهدى عند أبى نواس وكثرته عند أبى العتاهية رأينا الدكتور زكى مبارك يقدم النواسى على العتاهى عند الحديث عنهما فى كتابه "التصوف الإسلامى" ، وأبان عن ذلك فقال :

"[١] وبعد أبى نواس يأتى أبوالعتاهية، وكان أولى بالتقديم، لغلبة الزهد على شعره، ولكنا نرى القليل من زهديات أبى نواس: أحفل بروح الصدق من كثير أبىالعتاهية" ٠

وقد اتسم شعر الزهد عند الشاعرين بطابع عام لا يفارقهما، حيث أدرك كل منهما قسوة الأعباء وثقل الأوزار التى ينوء بها كاهل كل واحد منهما ، وشعرا بخطئهما، فكان شعر الزهد تنفيسا عن هذه الكروب وتتويجا للتوبة النصوح، ولكن هذا الإحساس أو هذه الثورة: لم تستقر فى قلب أبى العتاهية وتنفجر منه مثلما انفجرت من وجدان أبى نواس الذى كان أكثر صدقا وإخلاصا من أبى العتاهية ٠

ومن شعرهما فى المناجاة والابتهال : ما ذكره صاحب زهر الآداب ، حيث روى لأبى العتاهية مقطوعة سبق أن ذكرناها، وأولها:

فوا عجبا كيف يعصى المليـ ∴ ـك أم كيف يجحده الجاحد

---

(١) التصوف الإسلامى جـ١ ص٩٥ ٠

وكان قد جلس فى دكان وراق،وأخذ كتابا،وكتب الأبيات المذكورة على ظهره، وانصرف، ويقول الحصرى : "فاجتاز أبونواس بالموضع، فرأي الأبيات ، فقال : لمن هذا ؟ فلو ودتها لى بجميع شعرى ، فقيل: لإسماعيل بن القاسم (أبى العتاهية) فوقع تحتها:

سبحان من خلق الخلـ ∴ ق من ضعيف مهين

فصاغه من قرار ∴ إلى قرار مكين

يحول شيئا فشيئا ∴ فى الحجب دون العيون

حتى بدت حركات ∴ مخلوقة من سكون[1]

وكان كل منهما يعجب بشعر صاحبه فى الزهد مصداقا لما ذكره الحصرى ولما ذكره أبو نواس أيضا فى شأن أبى العتاهية حيث قال : "ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى وأنا أرضى، وقال أبو نواس : "أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون" عندما استمع إلى أبيات لأبى العتاهية، وهى:

لا ترقدن لعينك السهر ∴ وانظر إلى ما تصنع الغير

انظر إلى غير معرفة ∴ إن كان ينفع عينك النظر

وإذا سألت فلم تجد أحدا ∴ فسل الزمان ، فعنده الخبر[2] .

(١) زهر الآداب جـ١ ص٢٣٢ .
(٢) تاريخ بغداد جـ٦ ص٢٥ .

وقال أبو العتاهية : قد قلت فى الزهد عشرين ألف بيـت، ووددت لو أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها أبو نواس :

يـــا نـــواس تـــوقر ∴ وتجمـــل وتصـــب

إن ســاءك الــدهر بشــئ ∴ إن وبما ســرك أكثــر

يــا كبيــر الــذنب عفــوا ∴ اللــه من ذنبك أكبــر [١]

وكان أبو العتاهية يتمنى أن يترك له ابو نواس شعبيته فـى فـن الزهد، على أن يترك لأبى نواس شعبيته فى الخمر والغزل بالمذكر ، إلا أن هذه الأمنية التى روتهـا كتـب الأدب : ربمـا أسـاءت إلـى أبى العتاهية، وجعلت همه فى الزهد هو الوصول إلى أهداف معينة، من غير اعتقاد صحيح أو توبة خالصة. وكانت هذه الروايـة مـن أهـم الدلائل فى التشكيك وإضفاء الريب على توبة أبىالعتاهية وتوبة أبـى نواس أيضا ٠

وقد اقتربت المعانى من بعضها عند الشاعرين اقترابا أوقع الرواة فى اضطراب كبير فرأينا بعضهم وقد نسب بعض المقطوعات إلى أبى العتاهية، ورأينا البعض الآخر وقد نسـب المقطوعـات نفسـها إلـى أبىنواس٠

ومن ذلك المقطوعة التالية التى وردت فى ديوانى أبى العتاهيـة وأبى نواس وهى[٢]:

---

(١) الديوان ص٦١٣ ٠

(٢) ديوان أبى العتاهية ص٤١٤ وديوان أبى نواس ص٦١٧ ٠

أيا من بين باطية ودن ∴ وعود فى يدى غاو مغن

إذا لم تنه نفسك عن هواها ∴ وتحسن صونها، فإليك عنى

فإن اللهو والملهى جنون ∴ ولست من الجنون،وليس منى

وأى قبيح أقبح من لبيب ∴ يرى متطربا فى مثل سنى

إذا لم يتب كهل لشيب ∴ فليس بتائب ما عاش ظنى

وربما كانت كثرة شعر الزهد عند أبى العتاهية ليست له، إذ علتها مسحة من التكرار والتقليد، وكان شعر الزهد عنده فى الغالب سهلا لينا، ولهذا شاع فى العامة، لأن لغته اقتربت من لغة الحياة اليومية، وتعلقت بهذا اللون الطبقة التى لم تكن تعرف إلا الكد والشقاء وشظف العيش وصعوبة الحياة.

وقال عنه الدكتور زكى مبارك: "كان غزير البحر لطيف المعانى، سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف، إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك، وأكثر شعره فى الزهد والأمثال"[١] وإذا كان معاصروه قد اتهموه فى زهده وتوبته ونسجوا حوله الحكايات والأقاويل ، إلا أن أحكامهم لم تكن منصفة وليست مبنية على منهج نقدى محايد، وقد نهض أبو العتاهية مع كل هذا النقد المتباين بدوره الريادى فى شعر الزهد، وأخلص لهذا الفن، وقال فيه ديوانا كبيرا لا زال باقيا وشاهدا على عبقريته وسجلا حافلا لشعر الزهد فى القرن الثانى من الهجرة.

---

(١) التصوف الإسلامى جـ١ ص٩٥ .

أما أبونواس فقد أخلص فى توبته، وقال شعرا قليلا فى الزهـد، لكنه حظى بإعجاب الكثيرين، لما فيه من صـدق العواطـف ورقـة المشاعر، وقد خاطب النواس الملوك والأمراء وأصحاب النفـوذ فـى شعره الزهدى، بينما خاطب أبوالعتاهية العامة بشعره الزهدى واتجـه إليهم، وعبر عن آلامهم ، وقد نهض الشاعرأن مع غيرهما من شعراء عصر هما بتبعة النهوض بالشعر الدينى فى القرن الثانى من الهجرة.

آراء المعاصرين فى شعر الزهد عند أبى نواس :

١ - فى بحث للأستاذ عباس محمود العقاد عن أبى نواس تحدث فيه عن عقيدته الدينية، ورأى أنه ليس من اللادينيين فقال : "لـم يكـن عن يقين من اللادينيين، لأنه لم ينقطع قط عن اللهج بالأديان، وإن كان ليلهج بها لهجا لا يطيب للمتدينين الصالحين" ثم قال : إذ هو لم يـذكر قط مجلسا من مجالس لهوه ولا معرضا من معارض غزله، إلا أشـار معه إلى جوه الدينى أو علاقته الدينية، بغيـر داعيـة مـن دواعـى الموضوع أو المقام"(١) ومع شهرة أبى نواس فى المجـون ومخالطتـه لوالبة بن الحباب وغيره من المجان، واتهامه بالزندقة ودخوله السـجن بسببها أكثر من مرة، فقد عاش أبو نواس مرتبطا بالدين كبير اللهج به والتحدث عنه، وقد اختار إحدى النحل المنتشرة فى عصره لكى يتمكن معها من الجمع بين عقيدته الدينية وعبثـه ومجونـه، فـاعتنق نحلـة المرجئة التى نشأت مع ظهور الخلاف بين المسلمين بعد مقتل عثمـان ابن عفان ﷺ.

---

(١) أبو نواس ص١٤٢ .

وقال العقاد تعليلا على تعلق النواس لهذه النحلة: "ليجمع بين لهوه واعتقاده الإيمان، وطفق ينادى بإنكار الشرك، ولا يبالى ما عداه فقال:

ترى عنــدنا مــا يســخط الله كلــه ∴ من العمل المردى الفتى،ماخلا الشركا

وقال :

تــرى عنــدنا مــا يكــره الله كلــه ∴ سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر[1]

وللنواس شعر كثير ينبئ عن هذا الاتجاه نحو الدين، بل ويؤكــده تأكيدا، ويكفى أن نذكر منه بعض الأبيات التى يقول فيها :

خـــل جنبيـــك لـــرام ∴ وامـــض عنـــه بســلام

مــت بــداء الصــمت خيــر ∴ لـــك مـــن داء الكـــلام

ربمـــا اســـتفتحت بالمـــذ ∴ ح مغـــاليق الحمـــام

رب لفـــظ ســـاق آجـــا ∴ ل نيـــام وقيـــام

إنمـــا الســـالم مـــن ألجـــ ∴ ـــم فـــاه بلجـــام

فالبس النـــاس علـــى الصحـــ ∴ ـــة مـــنهم والســـقام

وعليـــك القصـــد إن الـــ ∴ قصـــد أبقـــى للجمـــام

شـــبت يـــا هـــذا ومـــا تتـــ ∴ رك أخـــلاق الغمـــلام

والمنايـــا آكـــلات ∴ شـــباريات للأنـــام

---

(١) المرجع السابق ص١٥١ .

وهكذا استبان لنا تنقل الشاعر بين المجون والزهد، في عنفوان شبابه، بما لا يبعده عن الدين أو يجرده من الإسلام، أما تحوله إلى الزهد وإعلانه لنسكه وتوبته في آخر حياته فقد أثار الخلاف بين المحدثين ، إذ أنه ــ كما رأى العقاد ــ لم يكن جادا في معظم ما قاله طول حياته بمعنى أن توبته لم تكن صادقة ، وذكر العقاد أن بعض الأشعار في النسك والتوبة كان يصطنعها النواسي: خوفا من الأمين، واستشهد بقوله:

اطع الخليفة واعصِ ذا عـزفٍ ∴ وتنح عن طربٍ وعن قصف

وقال : " أو يكون النظم في النسك بابا من أبواب (العرض) وصدق التمثيل ليقال : إنه قال في النسك وهو ماجن ما لم يحذقه النساك ...

ثم قال : "وكان أبو العتاهية يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات، وددت لو أني سبقته إليها بكل ما نظمته، فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو اللـ ∴ ـه من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متهما ∴ لم يمس محتاجا إلى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشــفت ∴ له عن عدو فى ثياب صديق"[١]

وهكذا ، تردد النواس فى توبته فى شبابه، وفى طول حياته، ولم يكن الشر والأذى طبعا فيه، وكانت الآفة عنده هى الضعف والشــعور المغلوب، ثم يجمع الأستاذ عباس العقاد رأيه فى أبى نــواس فيقــول : "وما لم يكن من شعر التوبة إطاعة لأمر أو إدلالاً بقدرة فنية ، فلعلــه خاطرة من خاطرات الندم تطيف بقلبه ساعة، ثم تمحوها داعيــة مــن دواعى اللهو، فينساها . ويسرى هذا على شعره كله فى التوبة والعظة ، ما خلا نتفا يسيرة من نظمه فى أخريات عمره، قد تستشــف منهــا خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع، ولم تأت هذه التوبة إلا بعــد مطاولة ومراوغة يستبقى بهما بقية الشباب"[٢] وقد ذكر العقاد فى تدليله على هذا المنحى بعض الأشعار أو النتف اليسيرة، بما لا يخرج عمــا استشهدنا به خلال هذا البحث .

٢ – وفى مقالات الدكتور طه حسين التى انتظم منهــا الجــزء الثانى من كتابه "حديث الأربعاء" عقد عدة فصول تحدث فيما عن أبى نواس، وقد هوجم الدكتور طه حسين هجوماً عنيفاً عندما جعل النواس ممثلا لعصره فى الشك والمجون وإيثار اللذة، ورد عليــه الكثيــرون، واشتد الخلاف بينهم، وقد نهضت جريدة السياســة بنشــر كــل تلــك المقالات فى العقد الثالث من هذا القرن، وتحدث الدكتور طــه حســين

---

(١) المرجع السابق ص١٥٥ .
(٢) المرجع السابق ص١٥٧ .

عن فنون الشعر عند أبى نواس وختمها بالحديث عن شعر الزهد، فقال: "أما الفن الذى أريد أن أختم به القول فى أبى نواس، فهو فن الزهد، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها، وذلك مفهوم أيضا: فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبى نواس لما استطعت، إلا أن تقول : إن أبا نواس كان يزدرى الحياة ويسخر منها"[١] ثم يقول : "فليس غريباً إذاً أن يجيد أبو نواس فى المجون وفى الزهد معا، على أننى لا أستطيع أن أحكم على أبى نواس : أكان هو مسلما خفا أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن فى أبى نواس هو: أنه تجاوز حدود الإسلام وازدرى أصوله وقواعده غير مرة فى حياته الطويلة، ولنقل: إن شعره فى الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضا ، ولنختم قولنا بهذه الأبيات القيمة التى قالها فى الزهد"[٢].

أية نار قدح القادح ∴ وأى جد بلغ المازح

لله در الشيب من واعظ ∴ وناصح ، لو حظى الناصح

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ∴ ومنهج الحق له واضح

فاسم بعينيك إلى نسوة ∴ مهورهن العمل الصالح

لا يجتلى الحوراء من خدرها ∴ إلا امرؤ ميزانه راجح

من اتقى الله فذاك الذى ∴ سيق إليه المتجر الرابح

شمر، فما فى الدين أغلوطة ∴ ورح لما أنت له رائح

---

(١) حديث الأربعاء جـ٢ ص١٣٧ دار المعارف .
(٢) حديث الأربعاء جـ٢ ص١٣٨ .

٣ - وفى كتاب "التصوف الإسلامى" للـدكتور زكـى مبـارك تحدث عن كلام الشعراء فى الزهد، وبدأ بأبى نواس، ثم بأبى العتاهية، وقد عجبت من تقديمه للنواسى على العتاهى ، إلا أنه ذكر ما يزيل هذا العجب . فقال : "ونبدأ هذا الفصل بالكلام عن أبى نواس لأنه أظهـر شخصية تكلمت فى الزهد بعد المجون ، ويمتاز أبو نواس بـالإخلاص فى كل ما لهج به من المعانى الشعرية، فهو مخلـص فـى زندقتـه، ومخلص فى فجوره، ومخلص فى تقاه، ولا تكاد تشعر بأن ابا نـواس يعبث، إنما يتكلم بكلام أصحاب المبادئ ، فهو يشك عـن إخـلاص ، ويلحد عن إخلاص، ويفسق عن إخلاص، ويتوب عن إخـلاص فهـو نموذج لقوة الروح وحياة الوجدان فـى مسـالك الهـوى ومسـارب الضلال"[١].

وربما كان فى هذا الكلام غنية عن صفحات مطولة فى الحـديث عن أبى نواس، وأهم ما فيه الإشارة : بروح الصدق التى يحفل بهـا. فلقد كان الرجل صادقا فى مجونه وخلاعته ، وصادقا أيضا فى زهـده واعتداله .

ويرى الدكتور زكى مبارك أن النواس يثق بـالله، ويـدعو إلـى الإيمان به، وأن الحاجة إلى الناس من علامات ضعف اليقين، واستشهد ببيته الذى قال فيه :

لـو لـم تكـن لله متهمـا ∴ لم تمس محتاجـا إلـى أحـد

(١) التصوف الإسلامى جـ١ ص٩١ .

وقال الدكتور زكى مبارك : "وفى ديوان أبى نواس باب اسـمه الزهد يشتمل على قصائد ومقطوعات تمثل رأى الشاعر فـى بعـض الأزمات النفسية والأخلاقية، فليرجع إليه القارئ إن شاء ، ولكن لابـد من الإشارة إلى أن هذا الشاعر يتفق له أحيانا أن ينطق بأبيـات هـى نماذج من الندم الموجع، وهو يتحدث عن المجون.

وتعليل ذلك سهل : "فلبعض النفوس الجوامح صبوات إلى ما فى الرشد من طمأنينة وأمان "[١].

٤ - وكتب الدكتور محمد رجب البيومى[٢]مقالا بعنوان"أبونواس يحج" فى كتاب "نظرات أدبية ، الجزء الثانى ، تنـاول فيـه بالشـرح والتحليل ما قاله أبونواس فى حجه، فى السنة التى حجت فيها محبوبته "جنان" مع مولاها عبدالوهاب الثقفى، وأمام الكعبة المشـرفة أشـرقت روحه. وهام وجدانه فلهج بالتلبية المشهورة له، التـى عرضـنا لهـا واستشهدنا بها، وقد عبر الدكتور رجب البيومى عن هذا الموقف فقال : "ومع هذا فقد تيقظت مشاعر الحسن فجأة فى طوافه وتلبيته، فلم يكد يسمع الترانيم الشجية يصدع بها المليون طوائف تتلاحق وتتابع. حتـى حركت أوتار قلبه، وأخذ النغم الساحر يسكب فى سمعه نشوة راقصة، فنسى "جنان" بضع لحظات وسحره الجمع الحاشد يصيح ويستصـرخ، فلبى مع الملبين، تلبية هى فى الواقع تغريدة عذبة، صدح بهـا فنـان

---

(١) المرجع السابق ص٩٤ .
(٢) عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة الأسبق.

موهوب"[١] ويذكر رأيه فى مقطوعة أبى نواس فى التلبية وفى سائر شعر الزهد عنده، فيقول : "وكثيرا ما يقف الأدباء أمام مقطوعة الحسن فى التلبية وما يشاكلها من أشعاره فى الزهد والتوبة حائرين مرتبكين، حيث يستغربون صدور هذه النفثات الصادقة من خليع مستهتر بالشرع الحنيف، ولقد فات هؤلاء جميعا: أن لكل نفس مهما غرقت فى الخلاعة والفسق سبحات خاطفة تصلها بالسماء ، فتندم على ما فرطت فى جنب الله ، وتتجه إلى الخالق مستغفرة باكية ، فلا عجب إذا أدركت الشاعر هذه اللحظات الخاطفة فى أبياته الزاهدة، لاسيما والحسن برغم مجونه الزائد، متصل السبب بالآثار الدينية والمواعظ الروحية[٢]٠

من مجموع ما ذكرناه عن أبى نواس – سواء مما قدمناه فى الحديث عنه أو مما نقلناه عن الأدباء المحدثين – تتضح الصورة لهذا الشاعر فيما قاله من زهد، فالرجل قد تردد فى توبته طوال حياته، ولهذا التردد : رفض البعض شعره فى الزهد، وزعموا أنه قاله للافتتان أو مجاراة لأبى العتاهية وأمثاله الذين كانت تروج أشعارهم فى العامة ، ولأن ما قاله أثناء ذلك لا ينسجم مع شعره فى الخمر والمجون، وعلى كل فقد كانت نفسه منقسمة إلى قسمين : أحدهما يتجه بها إلى المجون، والآخر يدفع بها إلى الزهد ، حتى إذا كبر سنه اشتد ورعه ولهج بما لهج به من ورع وزهد ٠

(١) نظرات أدبية جـ٢ ص٨٢ مطبعة زهران سنة ١٩٧١م ٠
(٢) المرجع السابق ص٨٣ ٠

خاتمة :

ليس للنواس شعر كثير فى الزهد، ومع قلة ما قاله فى هذا اللون: إلا أنه تميز بالصدق والجودة والتعبير، وقد راينا كيف كانت زهدياتـــه قوية ومؤثرة ولهذا حازت إعجاب الكثيرين قديما وحديثا على السواء.

ويتميز هذا الشعر بعمق الأفكـــار ورحابـــة الأخيلـــة وصـــدق العواطف والمشاعر، والإخلاص فيما لهج به وعبر عنه ، ولهذا قـــال الدكتور زكى مبارك "إن أبا نواس قد مرت به لحظات كان قلبه فيهـــا أرق من الهواء وأطهر من الماء، وإن لأبى نواس أشعارا فى الندم هى أقوى وأصدق من كل ما نظم أبو العتاهية فى الزهد، وليس بكثيـــر أن يغفر الله لذلك الشاعر، الذى ظلم نفسه: ثم أناب إلى الله" .

وقد أوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات :

وعظتـــك أحـــداث صـــمت ∴ ونعتـــك أزمنـــة خفـــت

وتكلمـــت عـــن أوجـــه ∴ تبلـــى وعـــن صـــور ســـبت

وأرتـــك قبـــرك فـــى القبـــو ∴ ر ، وأنـــت حتـــى لـــم تمـــت

وقد خاطب أبو نواس بشعره الملوك والأمراء وأصحاب النفـــوذ، وتغلغل فى أعماق نفوسهم، ووقف على بعض الطقوس الموروثة مـــن قبل عصره، وكشف عن موهبته فى استحضار الملح والنـــوادر مـــن المعانى التى ابتكرها بموهبته الفذة وقدراته الخلاقة فاجتنـــب التكـــرار والتكف، واختار أسهل الألفاظ التى تواكب شعر الزهـــد. وإذا كانـــت

توبته فى عنفوان شبابه : محل ظن وارتياب فإن عظمته الشعرية فوق الشكوك والظنون، وقد استعاد بما حصله من سائر العلوم، وأخذه من سائر الثقافات، وأبونواس صورة لعصره وبيئته فى مجونه وزهده، وفى إقباله على الدنيا وانصرافه عنها . وقد لحق بربه بعد مصرع الأمين بوقت قليل، فى نهاية القرن الثانى من الهجرة، وترك الناس من بعده يتحدثون عن شعره ويختلفون فى زهده، ولا زالوا مختلفين .

أهم المراجع والمصادر

١) أبو العتاهية ــ حياته وشعره للدكتور/ محمد محمود الدش : دار الكاتب العربى ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م ٠
٢) أبو نواس :الحسن بن هانئ ــ عباس محمود العقاد ، دار الهلال٠
٣) أبو نواس : حياته وشعره ، بأقلام عدد من الأدباء والنقاد ــ المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت ــ وقد طبع الكتاب أولا بدار الهلال المصرية ٠
٤) أدب الزهد فى العصر العباسى ، الدكتور عبدالستار السيد متولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م ٠
٥) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣ مطبعة الخانجى بمصر ــ تحقيق عبدالسلام هارون ٠
٦) تاريخ آداب اللغة العربية ٠ جرجى زيدان جـ٢ دار الهلال٠
٧) تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) د٠ شوقى ضيف : دار المعارف الطبعة الثامنه ٠
٨) التصوف الإسلامى للدكتور زكى مبارك ــ الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ ــ ١٩٣٨م مطبعة الرسالة ٠
٩) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين جـ ٢ دار المعارف ــ الطبعة الثانية عشرة ٠
١٠) ديوان أبى العتاهية ٠ دار صادر بيروت ، لبنان ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م ٠
١١) ديوان أبى نواس ــ شرح الغزالى ــ دار الكتاب العربى بيروت ، لبنان ١٩٨٣م ٠
١٢) ديوان أبى نواس : طبعة دار صادر بيروت ٠
١٣) ديوان أبى نواس (حياته ــ تاريخه ــ نوادره ــ شعره) المكتبة الثقافية ــ بيروت ــ لبنان ٠

ملامح البيئة المصرية
فى شعر البهاء زهير

حياة البهاء زهير فى مصر :

اتسم الشعر العربى فى مصر إبان حكم الفاطميين والايوبيين بالرقة والخفة والعذوبة وتجلى ذلك فى شعر ابن سناء الملك والبهاء زهير، وابن مطروح وغيرهم ، على أن هذا الاتجاه الذى تميز به الشعر المصرى آنذاك كان تعبيراً عن الطبائع الاجتماعية ، واستجابة لما جبلت عليه النفسية العربية فى مصر ٠

وكان ابن خلكان قد تحدث عن البهاء زهير، وترجم له فى (وفيات الأعيان)، وقال عن شعره : "وشعره كله لطيف، وهو كما يقال: السهل الممتنع"[١]٠

ولد البهاء (أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى) بالقرب من مكة عام ٥٨١هـ ، ونشأ بقوص صعيد مصر، وانتقل إلى القاهرة، واتصل بملوك بنى أيوب، ومات فى عام ٦٥٦هـ٠

أما قوص فكانت آنذاك ثالثة المدن المصرية من حيث المكانة والأهمية، وقال عنها ياقوت : "وهى مدينة عظيمة واسعة"[٢] وتمكن البهاء بمن فى هذه المدينة من علماء وشعراء ومثقفين من أن ينشأ نشأة أدبية راقية جعلته يحسن القول والتعبير عن البيئة المصرية، ولذا قال

---

(١) وفيات الأعيان ج٢ ص٣٣٦ طبع دار الثقافة بيروت تحقيق د/ إحسان عباس٠

(٢) معجم البلدان ج٤ ص٤١٣ طبع دار صادر ــ بيروت ٠

عنه الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله : "لست أعـرف شـاعراً نفخت مصر فيه من روحها ما نفخت فى البهاء زهير، فهو مصـرى فى عواطفه، وفى ذوقه، وفى لهجته إلى الغاية القصوى"(١).

وقد أكثر البهاء من مديح الملوك والأمراء الأيوبيين، أى أنه لـم يقصر شعره على الطوائف العامة فى قوص ، بل شمل بفنه كثيراً من وجهاء عصره، وأبرزهم على الإطلاق هو الملك الصالح نجم الـدين أيوب ، وارتقى فنه ، وسمت شاعريته، وتنوعت ثقافته، ولهـذا كـان جديراً برئاسته لديوان الإنشاء ٠

ومن المؤكد أن الشعر العربى لم ينفصل عن الحياة الاجتماعيـة فى عصر البهاء ، وتجلى ذلك فى وقوف الشعراء خلـف الأيـوبيين الذين تصدوا للغزو الصليبى، وبرزت السمة الحماسية على كثير مـن القصائد المطولة التى اتجه بها الشعراء إلى الملوك والأمراء والأعيان، وكان شعر البهاء صورة لعصره، وتعبيراً عن بيئته وتمثـيلاً لثقافتـه، وقد تحدث عنه أحمد حسن الزيات فقال : "جاء (شعره) عـذبا رقيقـاً يطمع السامع أن يأتى بمثله لسهولته ورقته، فإذا حاول عجز، فشـعره فيض قريحته، ووحى طبيعته وصورة بيئته. لم يقلد فيه أحـداً، ولـم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبـر عنـه إلا بلغـة المصـريين وأساليبهم ... "(٢).

---

(١) البهاء زهير للدكتور عبدالفتاح شلبى ص٦٥ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٠م ٠

(٢) تاريخ الأدب العربى ص٣٥٦ الطبعة الخامسة والعشرون٠

وللبهاء شعر كثير فى الحنين إلى مصر والتشوق إليها قال :

أأرحل من مصرَ وطيبِ نعيمها ∴ فأى مكانٍ بعدها لى شائقُ[(١)]

وقال :

ولم أر مصرا مثل مصر تروقنى ∴ ولامثل مافيها من العيش والخفض

وبعد بلادى فالبلاد جميعها ∴ سواء فلا أختار بعضا على بعض[(٢)]

وديوانه زاخر بالقصائد والمقطوعات التى تبرز حبه لمصر وتعلقه بها .

٤- غرامه بالطبيعة المصرية :

تنوعت الأغراض الشعرية فى ديوان البهاء ، وامتد فنه إلى وصف الطبيعة الحية والصامتة وقرأنا له شعراً يتغنى فيه بالصعيد وأهله ، وشعراً آخر يصف فيه النيل وأمواجه وشواطئه ، وهو يحن إلى مصر ، ويشتاق إلى مروجها الخضر ، ويدعو لها بالغيث والسقيا، ويهوى ورود النيل وأصوات الشحارير، متنقلاً بين الجمال الحى فى وصفه للغيد الحسان ، وبين جمال الطبيعة فى المروج والأغصان ، قال :

أيامُ مصر ليتها ∴ فُديت بأيامى البواقى

وبجانب الفسطاط لى ∴ قمرٌ يعزُّ لى فراقى[(٣)]

---

(١) الديوان ص١٨٠ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوى طبع دار المعارف بمصر ١٩٨٢م .

(٢) الديوان ص١٤٩ .

(٣) الديوان ص١٨٦ .

وهو يحن إلى مصر ، ويشتاق إلى أيام صبواته فيها، ولم يكـن البهاء أول من تغنى بها، وعبر عن شوقه إليها، فقد تجلت هذه الـروح القومية إبان الحروب الصليبية، وفى عهد صلاح الدين الأيوبى بصـفة خاصة ، ويعد ابن سناء الملك أبرز من فجر هذه المشاعر القومية، أما البهاء فقد اتخذ لنفسه عدة طرق لتجسيد شعوره الوطنى، وكـان منهـا ثناؤه على الملوك والأمراء الأيوبيين كما سوف نوضح فيمـا بعـد ــ وليس هذا فحسب ، بل إنه أبرز غرامه بالطبيعـة المصـرية ودعـا لربوعها بالسقيا فقال :

سقى واديا بين العريش وبرقـة ∴ من الغيث هطّالٌ هناك وهتـانُ

وحيّا النسيم الرطب إذا سـرى ∴ هنالك أوطانٌ إذا قيـل أوطـان

بلاد متى ما جئتها جئـت جنـة ∴ لعينك منها كلما شئت رضـوانُ[١]

وذكر صعيد مصر ، وعبر عن ارتياحه للحياة بين أهله فقال :

ويرتاح قلبـى للصـعيد وأهلـه ∴ وعيش مضى لى عندهم ومُقَامى

وأهوى ورُود النيل من أجل أنه ∴ يمر على قوم علـىّ كـرام[٢]

وقال :

نزلنـــا شـــاطئ النيـــل ∴ علـــى بسُـــط الأزاهيـــر

وقـــد أضـــحى لنـــا بـــالمو ∴ ج وجـــهٌ ذو أســـارير

---

(١) الديوان ص٢٦٤ ·
(٢) الديوان ص٢٣٦ ·

وفـــى الشـــط حَبَـــابٌ مثـــــ ∴ ل أنصـــــاف القـــــوارير
تســـــابقنا إلـــــى اللهـــــو ∴ ووافينـــــا بتبكيـــــر[١]

وكان أكثر وصفه للطبيعة مرتبطاً بمجالس أنسه وأيام لهوه، أمـــا النيل فلا زال إلى اليوم ــ كما كان بالأمس البعيد ــ مـــلاذاً للعشـــاق ومرتعاً للمحبين يلتقون حوله ، ويتغنون بمائه، فهـــو مصـــدر الحـــب ورمز الحياة منذ آلاف السنين ، وهكذا "أحب البهاء مصر ، واهتـــزت شاعريته لطبيعتها، وهتف بها واصفاً وتحدث فى وصفه عن النيـــل ، وأمواجه والمراكب فيه والجو، والأزاهيـــر ، والأثمـــار والـــدوحات والطيور والمروج والنواعير وتراب مصـــر وحصـــباءها وآصـــالها. وأكثر ما يتحدث عن ذلك وهو مغترب، فهو حينئذ يحن إلـــى مصـــر ويذكر مجاليها وأيامه ولياليه فيها"[٢].

وقد أسهمت البيئة فى تفتح الموهبة الشعرية عند البهاء ، ولذا قال محققا الديوان : "ونحن لا ننكر أثر البيئة فى تكوين الشاعر ، ولكننـــا نرى فى كل ما نقرأ فى ديوانه أنه يصدر عن طبيعة متأصـــلة تنميهـــا البيئة ولا تخلقها، فهى أقرب إلى الغرائز الطبيعية منهـــا إلـــى اللـــون المكتسب"[٣].

---

(١) الديوان ص١١١ .
(٢) البهاء زهير للدكتور عبدالفتاح شلبى ص٥٥ .
(٣) الديوان ص٦ (المقدمة).

تصويره للحياة المصرية :

يعد البهاء زهير واحداً من الشعراء الشعبيين الذين عزفوا على أوتار الجماهير ، وعبروا عن مختلف عواطفهم وقضاياهم ، وهكذا كان شأن أكثر الشعراء في عصره، إذ لم يعزلوا أنفسهم عن المشكلات الاجتماعية بل أبرزوا المناحى المختلفة للحياة اليومية، وقد خطا شاعرنا فى ذلك خطوات واسعة، وله قصيدة ينتقد فيها جماعة من رفقائه الذين ابتلى بهم قال :

أرى قوماً بُليت بهم ∴ نصيبى منهمُ نَصَبى

فمنهم من ينافقُنى ∴ فيحلف لى ويكذب بى

ويُلزمنى بتصديق الـ ∴ ـذى قد قال مَنْ كذب

وذو عجب إذا حدثـ ∴ ـت عنه جئتُ بالعجب

ويرد على من يسأله عن سبب صحبته لهؤلاء فيقول :

لأمر ما صحبتهم ∴ فلا تسأل عن السبب(١)

وقد عبر عن جوانب أخرى من حياة الناس سواء أكانت فى الحب أم فى المسرات أم فى الهموم والأحزان، وهى المظاهر التى تكتسى بها العلائق الإنسانية، ويرى أن أسعد الناس من لا يعرف الناس على حد قوله :

قلّ الثقاتُ فلا تركن إلى أحدٍ ∴ فأسعدُ الناس من لا يعرف الناسا(٢)

---

(١) الديوان ص٤٠ .

(٢) الديوان ص١٤١ .

ويوبخ من يخلفون الوعد ، ويماطلون فى القضاء انطلاقاً من الجملة الشعبية التى تتكرر على ألسنة كثير من الناس وهى: (فوت علينا بكرة)، قال :

قد طال فى الوعد الأمَدْ ∴ والحرُّ ينجزُ ما وعد

ووعدْتَنِى يوم الخميس فلا الخميسَ ولا الأحدْ

وإذا اقتضيتك لم تزد ∴ عن قول إى والله غَدْ(١)

ولا يخفى ما يتميز به هذا الشعر من خفة وسهولة وعذوبة ، والذى يتواكب مع الحياة المصرية بما فيها من تبسيط ومفاكهة ، وقد تجلت هذه الخصائص فى أسلوب البهاء ، وإننا لنراه يكرر كثيراً بعض التعابير التى تنطلق بها الألسنة العامة مثل (أهلاً وسهلاً) (وظنى فيك لا يخيب) (واحسب حسابك) وغيرها، قال شوقى ضيف : "هذا الشاعر من خير من يعبرون عن الروح المصرية فى العصر الأيوبى"(٢).

ويمتد تصوير البهاء للحياة المصرية إلى صبوات العشاق من خلال أسلوبه العذب الذى يجارى به البيئة فى فكرها وذوقها، قال:

تنصَّلَ مما جرى واعتذرْ ∴ وأطرق مرتديا بالخَفَرْ

فبادرتُ تُرْباً عليه مَشَى ∴ أقبل من قدميه الأثر

---

(١) الديوان ص٧٩ .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٩٧ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٨م.

وقمـــت فقلـــت لـــه مرحبـــا ∴ وأهلا وسهلا بهـذا القمـر[١]

على أن هذه الملامح تجعلنا نوقن بصدق ما قاله ابن خلكان عـن شعر البهاء ، حيث ذكر أنه "كثير الوجود بأيـدى النـاس"[٢] ويعنـى بكثرته فى أيدى الناس أنهم متنلقون به حافظون له حريصون عليـه ، ويتأكد فى قصائد الديوان ومقطوعاته سواء أكانت غزلاً أم هجـاءً أم شوقاً وحنيناً .

ويتحول البهاء فى بعض قصائده من راصد لحركة الحيـاة إلـى موجه لها ومؤثر فيها، وهو فى كل ذلك لا يتحول عن مذهبه التعبيرى الذى ساير فيه اتجاه العصر فى التقريب بين الفصحى والعامية، وكأن شعره جريدة يومية يلتف الناس حولها ويتفحصون فيها، ثم إنه استطاع أن يطوع اللغة للتعبير عن المعانى البسيطة التى تتصل بعامة الشعب ، مؤكداً بذلك على مرونتها واتساع مفرداتها. وقد أجمل بعض البـاحثين تصوير شعر البهاء لعصره، فقال: " ويلقى شعر البهاء ضـوءا علـى الحياة فى عصره، فهو يشير إلى كثير من العادات الدينية ، وأحـوال المجتمع كالنذور للأولياء فى أضرحتهم بالمسـاجد، وكالحـديث عـن طائفة الرفاعية ، وما عرف عنهم مـن خـوض النيـران، وتسـبيح المؤذنين فى الأسحار، وعن مظاهر الاحتفال فى عهده من دق الطبول ورفع الرايات وعن حجاب الرؤساء وخشونتهم وعن اللعب بـالنرد ، والخط على الرمل والتنجيم لمعرفة ما يكنه الغيب ، وعـن المـراثين

---

(١) الديوان ص١٢٦ .

(٢) وفيات الأعيان ج٢ ص٣٣٦ .

الذين يظهرون الزهد وهم على الدنيا متكالبون، وعن المرؤسين الذين يبذلون جهودهم، ورؤساؤهم عنهم غافلون"[١].

ويتناول البهاء فى شعره شؤون المجتمع المصرى ناقدا ما فيــه من سلبيات مشيدا بما فيه من إيجابيات مصورا للجوانب المختلفة مــن الحياة الاجتماعية .

حديثه عن جهاد مصر ضد الغزاة :

كانت انتصارات صلاح الدين الأيوبى على الفرنجة حافزا قويــا دفع السلاطين والأمراء من أبناء الأيوبيين، ليواصلوا هــذه المســيرة، وكانت موقعة دمياط التى انتصر فيها المسلمون واستردوا ثغرها مــن الصليبيين أبرز المعارك التى أعادت للمسلمين كــرامتهم فــى ذلــك الوقت. وكان الملك الكامل قد سحق الأعداء ، ودمر أسطولهم ففــروا هاربين إلى البحر المتوسط، وعمت الأفراح كــل الــديار المصــرية والعربية ، ونهض البهاء بمدح مليكه الذى حقــق النصــر فــى هــذه المعركة بواحدة من أروع قصائده، قال :

بك اهتز عِطْفُ الدين فى حلل النصر ∴ وردت على أعقابها ملَّةُ الكفــر
فقد أصبحتْ والحمــد لله نعمــةً ∴ يقصِّر عنها قدرةُ الحمد والشــكْر

وقد صدر فيها عن روح دينية وشعور قومى نبيــل، واعتــزاز بموقف المسلمين، كما جعلها خالصة لمدح الملك الكامل لاسترداد ثغر دمياط ، ودلل بها على تنامى الشعور بالوحدة العربية، وذكر أن الفرح

(١) البهاء زهير للدكتور عبدالفتاح شلبى ص٦٣ .

بهذا النصر لم يكن قاصرا على مصر بل شاركتها فيه مواطن أخـرى من ديار العرب والمسلمين قال :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحـدَها ∴ لقد فرحت بغدادُ أكثرُ من مصر

فلو لم يقم بـالله حـقَّ قيامـه ∴ لما سلمت دار الإسلام من الـذعر

وأقسـم لـولا همـةٌ "كامليـة" ∴ لخافت رجالٌ بالمقام وبـالحِجْر

فمن مبلغ هـذا الهنـاء لمكـةٍ ∴ ويثرب تنهيه إلى صاحب القبر

فقـل لرسـول الله إن سـميه ∴ حمى بيضة الإسلام من نُوَب الدهر

به ارتَجعت دمياط قهرا من العدا ∴ وطهرها بالسيف والملة الطُّهْر(١)

وإذا كان البهاء يتميز — كأكثر شعراء عصره — بخفـة الـروح وعذوبة الأسلوب ، فإنه لم يقطع صلته بالتراث الشعرى القـديم، إذ أن له فى هذه القصيدة بخاصة بعض الأبيات التى يتضـح فيهـا تـأثره بالمتقدمين من الشعراء كقوله :

فروَّيت منهم ظامئ البـيض والقَنَـا ∴ وأشبعْتَ منهم طاوى الذئب والنَّسْر

إذ تأثر فيه ببيت أبى فراس الذى قال فيه :

فأصدى إلى أن ترتوى البيض والقنـا ∴ وأسغب حتى يشبع الذئب والنسـر

ولكن هذا التأثر لم يصرف البهاء عن امتزاجه بالبيئة المصرية، وانعكاس روحها العامة عليه، فنراه فى بيت آخر من القصيدة نفسـها

---

(١) الديوان ص٩٩ وما بعدها ٠

يورد كلمة بعيدة عن المقياس اللغوى الصحيح وهى كلمة (مرتاح) التى جاءت فى قوله :

وإنى لمرتاح إلـــى كـــل قـــادم ∴ إذا كان من ذاك الفتوح على ذكـــر

وكان البهاء قد لزم الصالح أيوب، وارتحل معـــه إلـــى الشـــام، ومدحه بالشجاعة والإقدام ، قال :

يُرَوِّى القنا بدم الأعادى فى الوغى ∴ فلذاك تُثْمِرُ بالرءوس وتُـــورق

يمضى فيقْدُمُ جيشُه مـــن هيبـــةٍ ∴ جيش يغصُّ به الزمانُ ويُشـــرق

مـــلأ القلـــوب مهابـــةً ومحبـــة ∴ فالبأس يُرهب والمكارم تُعْشـــق

ستجوب آفـــاقَ الـــبلاد جيـــادُه ∴ ويروى له فى كل فج فيلـــق[١]

فهذا اللون لم يخرج البهاء عن الطبائع المميزة لشعره من حيـــث جريانه على الفطرة والبساطة بلا تكلف ، أما السهولة فلم تكـــن ســـمة خاصة به بل كانت "سهولة" جماعية يلتقى علـــى ســـاحاتها الشـــعراء المصريون ممتزجين فيها ببيئتهم، بل قل صادرين عنها، وعما يجرى فيها من استواء ويسر دون التواء .. [٢].

---

(١) الديوان ص١٧٧ ٠

(٢) فصول فى الشعر ونقده د/ شوقى ضيف ص١٧٦ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م ٠

ميله إلى الفكاهة والدعابة :

لقد انعكست الروح المصرية على شعر البهاء زهير ، فهو يستعمل الأمثال والنكات التى تدور على ألسنة الناس، مع سهولة فى التعبير والبعد عن التكلف ، قال :

شرفونى بزورة ∴ شرف الله قدركم

ورأيتم تجلدى ∴ فى هواكم فغركم

لو وصلتم محبكم ∴ ما الذى كان ضركم

مات فى الحب صبوة ∴ عظم الله أجركم(١)

ولا زال الشعب المصرى يردد إلى اليوم فى المصائب والملمات جملة "عظم الله أجركم" وقد ساقها الشاعر فى موقف غزلى يدعو فيه هواه ومنى قلبه إلى الوصال ونبذ الفراق. وفى موقف آخر يدعو حبيبه إلى كتم الأسرار، ويتمثل بما نقوله فى أمثال هذا الموقف "للحيطان آذان" ، قال:

إياك يدرى حديثا بيننا أحد ∴ فهم يقولون : للحيطان آذان

ويحاول الهرب من السهاد بالنوم فيقول فى بيت آخر من القصيدة نفسها :

من لى بنومى أشكو ذا السهاد له ∴ فهم يقولون:إن النوم سلطان(٢)

---

(١) الديوان ص١٢١ .
(٢) الديوان ص٢٦٥ .

وتزداد هذه المداعبات والمطارحات فى الشعر الغزلى الذى أكثر منه البهاء، وأجاد فيه خاصة وأن الأفكار الوجدانية فى هذا الشعر من النوع البسيط الذى يتلاءم مع طبائع العامة من الشعب، ولننظر إلى قوله الآتى :

من اليوم تاريخ المحبة بيننا ∴ عفا الله عن ذاك العتاب الذى جرى[١]

حيث لا يختلف عما يقوله الناس لبعضهم بعد العتاب : "عفا الله عما سلف" وقد تنبه بعض المستشرقين إلى هذه الخصائص التى تميز بها شعر البهاء فقال (هيار)، فى كتابه "الأدب العربى": "إن شعر البهاء يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف"[٢].

ويتجاوز بهذه السهولة اللفظية حدود المواقف الغزلية إلى الفكاهة والمداعبة التى كانت سمة بارزة على حياة المصريين أيام الفاطميين والأيوبيين، وهو هنا يهجو أو يمزح مع صديق له فيقول واصفاً بغلته:

لك يا صديقى بغلةٌ ∴ ليست تساوى خَرْدَلَهْ
تمشى فتحسبها العيو ∴ نُ على الطريق مُشَكَّلَهْ
وتُخَال مدبرة إذا ∴ ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطو ∴ يلة حين تسرع أنملَهْ

(١) الديوان ص١٠٦ .
(٢) البهاء زهير لعبدالفتاح شلبى ص٦٤ .

تهتـــز وهـــى مكانهـــا ∴ فكأنمـــا هـــى زلزلـــه[١]

ويمتد الهجاء أو المزاح فى بيتين آخرين إلى صاحبها بما نعف عن ذكره . وللبهاء مقطوعات قصيرة تجمع بين الهجاء والمزاح ساقها بروحه المرحة، وبساطته المألوفة التى تساير البيئة المصرية، كقوله:

أنـــا لا أبـــالى بالرقيـــ ∴ ـــب ولا بمنظـــره القبـــيح

غمـــز الحواجـــب بيننـــا ∴ أحلى من القـــول الصـــريح[٢]

فالروح المصرية تسرى فى كثير من الأغراض الشعرية، كما يتميز شعره بالمعانى الطريفة والأوزان الخفيفة،والدعابة والتورية وكل ما يثير الضحك سواء من ناحية المعانى والمواقف الواضحة أو من ناحية الأسلوب وما يشتمل عليه من مفارقات فى الجمل والتراكيب ·

الأسلوب :

يمثل البهاء زهير الشعر المصرى أصدق تمثيل، وقد كانت السهولة هى السمة الغالبة على هذا الفن إبان عصره، وأتاحت هذه السهولة للشعر أن يقترب ـ فى معظمه ـ من لغة الحياة اليومية، ويبدو أن الحروب الصليبية قد أذابت الفواصل بين العامة وفن الشعر، وهم الذين وجدوا فيه صدى لمعارك الإسلام ضد الغزاة المعتدين، وقد تمكن البهاء بفضل موهبته من التقريب بين اللغة الفصحى واللهجة العامية فى الكلمات والتراكيب، وصارت مواقف الحياة (الشعبية) مادة

---

(١) الديوان ص٢٢٧ ·
(٢) الديوان ص ٥٧ ·

أو مضموناً لكثير من القصائد والمقطوعات ، والتى قدمها فى صـــورة سهلة بسيطة غير معقدة،فملامح البيئة تتضح فى الأفكار والموضوعات التى عرض لها، وتتضح أيضاً فى الأسلوب السهل الرقيق، كما وشـــى شعره بضروب من البديع مثل الجناس والطباق والتورية، وهـــى مـــن مظاهر الصناعة اللفظية التى تميز بها الشعر آنذاك .

وسوف يتضح من الأمثلة التى سنعرض لها ارتبـــاط الأســـاليب الشعبية بالبيئة المصرية، ويتجلى ذلك فى الكلمـــة المفـــردة والجملـــة المركبة والتشبيهات البسيطة الساذجة .

ومثال ذلك فى الكلمات المفردة كلمة (الزبون) بمعنى المشـــترى من تاجر وهى كلمة شعبية مولدة، وقد ذكرها فى بيت له قال فيه:

وحقكم عندى لـــه ألـــف طالـــب ∴ وألف زبون يشتريه بزائـــد[1]

وكلمة (الرزة) بمعنى الحديدة التى يدخل فيها القفل، ومـــع أنهـــا صحيحة لغويا إلا أنها قاصرة على الاستعمال الشعبى، وذكرها البهـــاء فقال :

فلا عاذلى ينفك عنـــى إصـــبعا ∴ ولاوَقَعَتْ فى رزة الحب إصبعى[2]

كما أخرج كلمة (الخليع) من معناها اللغوى واستعملها اســـتعمالا شعبيا بمعنى القديم قال :

---

(١) الديوان ص٨٤ .
(٢) الديوان ص١٥٤ .

ذهـب الجديـد مـن الشـبا ∴ ب فكيـف ظنـك بـالخليع
وودت لـو دام الخليـ ∴ ـع فهل إليـه مـن شـفيع[١]

كما خالف قواعد اللغة فاستعمل لفظ (صدفة) وهى كلمة شـعبية فى معني مصادفة وجاءت فى قوله:

عسى نظرة من حسن رأيـك صـدفة ∴ تسوق إلى جدبى بها الماء والكلا[٢]

وقد خفف الهمزة بحذفها من كلمة (الكلأ) فى البيت السابق.

ونراه على طريقة المصريين يدخل واو القسم على كلمة (حياتكم) فيقول (وحياتكم)، وجاءت فى عدة مواضع منها قوله :

هيهـات لا وحيـاتكم ∴ حبـى أجـل وأعظـم[٣]

ونجد من أمثال هذه الكلمات قدراً كبيراً، والـذى نستشـف منـه الروح المصرية الأصيلة، مع أن هذه الكلمات لا زالت علـى ألسـنة العامة وبعض المثقفين إلى اليوم.

أما الجمل اللغوية المصاغة فى سهولة وخفة وبساطة فهى كثيرة جدا، تكاد لا تخلو منها قصيدة أو مقطوعة، فالشـعبيون فـى مصـر يقولون: من يسمع ومن يدرى، وذكر البهاء ذلك فقال :

وكـم قلـت، ولكـن أيـ ∴ ـن مـن يسـمع أو يـدرى

---

(١) الديوان ص١٥٨ .
(٢) الديوان ص٢٠١ .
(٣) الديوان ص١١٤ .

ويقولون : "للحيطان آذان" وصاغها شاعرنا فقال :

إياك يدرى حـديثا بيننـا أحـد ∴ فهم يقـولم: للحيطـان آذان[١]

ويقولون : "احسب حسابك" وأوردها البهاء زهير فقال :

احسب حسابك فى الذى ∴ تنويه من قبل الشروع[٢]

ويقولون : "النوم سلطان" وذكرها البهاء فقال :

من لى بنومى أشكو ذا السهاد لـه ∴ فهم يقولون: إن النوم سلطان[٣]

ويقولون : "العقل زينة" واستعملها البهاء فى هجاء شخص فقال:

مـا العقـل إلا زينـة ∴ سبحان من أخلاك منـه[٤]

ويقولون : "احفظ لسانك" وأوردها فى نصيحة له فقال :

فـاحفظ لسـانك تسـترح ∴ فلقد كفى ما قـد جـرى[٥]

ومن الأساليب والجمل الشعبية قولهم : "كفانا الله شرك" وذكرها البهاء فى حق شخص فقال :

لا جـزاك الله خيـراً ∴ وكفانـا الله شـرك[٦]

---

(١) الديوان ص٢٦٥ .
(٢) الديوان ص١٦٠ .
(٣) الديوان ص٢٦٥ .
(٤) الديوان ص٢٧٥ .
(٥) الديوان ص١١٩ .
(٦) الديوان ص١٣١ .

وأورد فى شعره كثيراً من التعابير الخاصة بالبيئة المصرية مثل (أهلاً وسهلاً) و(أعاذنا الله منه) و(على رأسى وعينى) و(لا ناقة لى فيها ولا جمل) و(لم يمر ببالى) و(الذنب ذنبى) و(على العين والرأس) و(من لا يسمى) و(العود أحمد) وغيرها.

كما يحاول بسط المعنى وتقريبه بعبارات بسيطة مستعملاً فيها أنماطاً من التشبيهات الشعبية الخفيفة، ولننظر إلى قوله:

وليلة من الليالى الصالحة ∴ باتت بها الهموم عنى بارحة
وغادة بوصلها مسامحة ∴ تحفظ ودى مثل حفظ الفاتحة(١)

فالمصريون يقولون إلى الآن : "مثل الفاتحة" فى كل شئ يراد التنبيه على قوة حفظه، كما يشبهون الكلام الثقيل بالرصاص، وقد استعمل البهاء هذا التركيب فى هجاء شخص فقال :

أبْرَمَنى كلامه الطويلُ ∴ فليته كان له محصولُ
وجملة الأمر ولا أطيل ∴ هو الرصاص بارد ثقيلُ(٢)

وتتضح الملامح الشعبية فى قوله :

نحن كضرتين فى معركة ∴ أدّرعُ الصبرَ عند لُقْياها(٣)

---

(١) الديوان ص٥٩ .
(٢) الديوان ص٢١٣ .
(٣) الديوان ص٢٩٠ .

ومن الواضح فى الأمثلة والشواهد السابقة أن الشاعر حريص على تصحيح لغة الحياة اليومية بحيث تتأتى موافقة لقواعد اللغة الفصحى باستثناء عدد قليل من الكلمات والذى لا ينفى الحرص على اللغة الصحيحة.

إن هذا المستوى من التعبير هو الذى يطلق عليه (اللغة الدارجة)، ويسمى فى العصر الحاضر (لغة الصحافة) والتى تتلاءم مع عامة القراء، على أن هذه اللغة السهلة المتداولة كانت مسايرة لروح العصر، ومرتبطة بالغالبية من الشعراء، وإن بعدت فى هذه الأيام عن الحياة الأدبية، واحتفظت ببقائها على الأفواه والألسنة .

ثم إن هذه السهولة لم تكن قاصرة على الكلمة المفردة أو الجملة المركبة بل كانت سمة عامة على الأسلوب، بحيث تبدو عليه مظاهر الخفة والبساطة، ولذلك يجد القارئ عسرا أو مشقة فى فهمه واستيعابه، ويدل هذا المنحى على مقدار إحساس الشعراء بالبيئة وارتباطهم بها.

خفة الوزن وجمال الموسيقى :

جاء الكثير من شعر البهاء فى صورة مقطعات صغيرة ما بين بيتين إلى ستة أبيات، وهذا ملمح من ملامح الخفة والبساطة، ثم إن أكثر قصائده ومقطوعاته قد جاءت من البحور الخفيفة باستثناء المدائح التى نظمها من بحرى الطويل والكامل، ولهذا قال أحد الباحثين: "وقد جاء شعره صالحاً للغناء والتوقيع به على الصاجات بروحه الخفيفة

وقافيته المرقصة، ونغمته المطربة وأوزانه الموسيقية، وإنــك لتــرى البهاء يسجل ذلك حين يقول :

كلامى غنى عن لحــون تزينــه ∴ له معبد من نفســه ومخــارق
تغنى به الندمان وهــو فكاهــةٌ ∴ ويورده الصوفى وهو رقائق[١]

ويحرص كثيراً على التناسق فى الألفاظ والتقسيم بــين الفقــرات حتى فى بحر الطويل نراه يقول :

ففى كل يوم لى حنــين مجــدد ∴ وفى كل أرض لى حبيب مفارقُ[٢]

كما يميل إلى استعمال الأوزان المجزوءة، وهو ملمح من ملامح الخفة والبساطة، فمن مجزوء الكامل قوله:

أيــــامُ مصــــر ليتهــــا ∴ فــديتْ بأيــامى البــواقى
وبجانـــب الفســـطاطِ لـــى ∴ قمـــرٌ يعــزُّ لـــه فراقـــى[٣]

ومن مجزوء الرجز قوله :

يــا رب قـــد أصْـــبَحتُ أر ∴ جـــوك وأرجـــو كرمـــك
يـــا رب مـــا أكثـــر مـــا ∴ كَثَّـــرْتَ عنـــدى نِعَمَـــكْ[٤]

---

(١) البهاء زهير لعبدالفتاح شلبى ص٤٤ .
(٢) الديوان ص١٨٠ .
(٣) الديوان ص١٨٦ .
(٤) الديوان ص١٩٤ ، ١٩٥ .

ومن مجزوء الرمل قوله:

يـــا ســـيدى أنـــا الـــذى ∴ تملكـــه ومـــا ملـــك
يســـرنى إن كـــان فـــى ∴ ملكـــى مـــا يصـــلح لـــك[١]

كما قال فى (الدوبيت) وهو وزن فارسى نقله المولدون إلى اللغة العربية، وله فيه عدة نماذج شعرية منها قوله :

يـــا مـــن لعبـــت بـــه شَـــمُولٌ ∴ مـــا ألطـــف هـــذه الشـــمائلْ
نشـــــوانُ بهـــــزه دلالٌ ∴ كالغصن مـــع النســـيم مائـــل
لا يمكنـــه الكـــلام لكـــن ∴ قـــد حمَّـــل طرفـــه رســـائل[٢]

وهكذا امتدت السهولة من الكلمـــات والتراكيـــب إلـــى الأوزان والقوافى، فتحول الشعر كله أنشودة من أناشيد الحب التى غناها البهاء على أرض مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى.

(١) الديوان ص١٩٥ .
(٢) الديوان ص٢١٤ .

أهم المصادر والمراجع

١) الأعلام ـ خير الدين الزركلى ، المجلد الثالث ـ طبع دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ١٩٨٤م ٠

٢) البهاء زهير ـ د/ عبدالفتاح شلبى ـ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٠م٠

٣) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجى زيدان ، الجزء الثالث ـ طبع دار الهلال بمصر ٠

٤) تاريخ الأدب العربى ـ أحمد حسن الزيات ـ الطبعة الخامسة والعشرون ٠

٥) تاريخ الأدب العربى ـ عمر فروخ ـ الجزء الثالث ـ طبع دار العلم للملايين ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٤م ٠

٦) ديوان البهاء زهير ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوى ، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٢م٠

٧) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ـ د / شوقى ضيف طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م ٠

٨) فصول فى الشعر ونقده ـ د / شوقى ضيف ، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م الطبعة الثانية ٠

٩) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ـ د/ شوقى ضيف ـ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٨م الطبعة العاشرة ٠

١٠) معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ـ طبع دار صادر ـ بيروت الجزء الرابع ٠

١١) المنتخب من أدب العرب،جمع وشرح أحمد الإسكندرى وآخرين الطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٩٤٩م ، الجزء الثانى٠

١٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ـ تحقيق د/ إحسان عباس ،دار الثقافة ، بيروت الجزء الثانى ٠

الحياة الاجتماعية كما صورها البوصيرى

عاش البوصيرى فى القرن السابع الهجرى، وعاصر الأحداث الجسام التى أحاطت بالشرق الإسلامى من غزو تترى، وقتال صليبى، وشهد انتقال الحكم فى مصر والشام من الأيوبيين إلى المماليك الذين بدأوا حكمهم بالإقالات والاغتيالات إلى أن نشطوا فى نهاية هذا القرن، وانتصروا على الفرنجة، وأعادوا "عكا" إلى حيازة الناطقين بالضاد .

ولقد ظهر الفساد الاجتماعى بين معظم الطوائف فى هذا العصر لانصراف المماليك إلى شئونهم الخاصة أو للاقتتال المستمر بين فئاتهم المختلفة أو لانشغالهم بالحرب مع أعدائهم، وانعكس هذا على فئات الشعب ، فانتشرت الرشوة فى دواوين الحكومة ، ونهب الموظفون الأموال، وسرقوا المؤن ، واشتد الخلاف بين الفقهاء ، وجار بعض القضاة فى الأحكام ، وكسدت سوق القريض ، وسعى الشعراء إلى حرف متصلة بالشعب ، وتحولوا بفنهم إلى الفكاهة والنكتة والدعابة، وانصرف القليل منهم إلى المدائح النبوية .

البوصيرى :

ولد البوصيرى بصعيد مصر فى سنة ٦٠٨هـ[١] ونشأ بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم بأحد المساجد، وتلقى به بعضاً من العلوم المختلفة فى اللغة والدين والأدب، وافتتح مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم، وأنجب أولاداً كثيرين، وتنقل بين مدن مصر وقراها من بلبيس إلى القاهرة، ثم

---

(١) وقيل سنة ٦٠٦هـ وقيل غير ذلك .

من القاهرة إلى المحلة والإسكندرية إلى أن توفى بالقاهرة فـــى ســـنة ٦٩٧هـــ[١] وله قبر كبير بالإسكندرية يتصل به مسجد مشهور تـــدرس به العلوم الدينية .

وفى القسم الأول من حياته مدح وهجا، ووصف وتغزل ثم اتصل فى القسم الثانى من حياته بالصوفية فاتجه إلى المديح النبوى، وله فـــى ذلك الهمزية والبردة وغيرهما .

ولقد استطاع البوصـــيرى أن يصـــور عصـــره مـــن الجانـــب الاجتماعى تصويراً كاملاً حتى إذا قرأنا شعره ودرسنا عصره وجـــدنا التطابق تاماً والصورة صادقة بين الشعر والعصر أو بـــين الشـــاعر والعصر أو بين الشاعر والحالة الاجتماعية فى عصره .

وقد نقد البوصيرى كل طوائف المجتمع نقـــد خبيـــر مجـــرب، لاتصاله بهم من خلال تنقله بين المدن والقرى، فضلاً عن معاناته من قلة موارده مع كثرة أولاده، ولهذا كان واحداً من الذين أسهموا بنصيب كبير فى النقد الاجتماعى ، وعن هذا الاتجاه من بعض الشعراء قـــال الدكتور محمود رزق سليم : " لقد تناولوا فى نقدهم السلاطين والأمراء وموظفى الدولة ووزراءها وقضاة الشرع وكتبـــة الـــدواوين، ونقـــدوا التعليم والصوفية، وتقاليد الأسرة إلى غير ذلك"[٢].

---

(١) وقيل سنة ٦١٥هـــ وقيل غير ذلك .

(٢) دولة سلاطين المماليك المجلد الثامن ص٢٣٤ .

وسوف نتتبع بعض ما قاله البوصيرى من نقد لطوائف المجتمع، فلربما وضحت الصورة للحالة الاجتماعية فى هذا العصر .

نقد طوائف المستخدمين :

ينحدر نظام الاستخدام فى هذه الدولة من السلطان إلى الوزير ثم إلى موظفى الديوان الذى كان يسمى حتى ذلك الوقت بديوان الإنشـاء، ويشرف عليه، وينظم سير العمل فيه طبقة من الكتـاب، وقـد عمـل البوصيرى مع هذه الطبقة، وزاول هذه المهنة فـى بلبـيس بالشـرقية ولكنه أخفق فى وظيفته لعدم معرفته للحساب معرفة كاملة أو لتـذمره من الأوضاع القائمة فى ذلك الوقت ، وربما أوقعه هؤلاء الكتاب فـى الخطأ من حيث لا يدرى ولا تعجزهم الحيلة إلى ذلك فصب عليهم جام غضبه، وأبان مكرهم وخيانتهم لسائر الناس فقال :

نقـدت طوائـف المسـتخدمينا ∴ فلـم أر فـيهم رجـلا أمينـا

فقد عاشـرتهم ولبثـت فـيهم ∴ مع التجريب من عمرى سنينا

فكُتّـاب الشـمال هـم جميعـا ∴ فلا صحبت شـمالهم اليمينـا

فكم سرقوا الغلال ومـا عرفنـا ∴ بهم فكـأنهم سـرقوا العيونـا

ولولا ذاك مـا لبسـوا حريـرا ∴ ولا شربوا خمـور الأنـدرينا

بـأى أمانـة وبـأى ضـبط ∴ أرد عـن الخيانـة فاسـقينا

ولا تحسب حسـابهمُ صـحيحا ∴ فإن بخَصْـمه الـداء الـدفينا

أقاموا فى الـبلاد لهـم جبـاة ∴ لقـبض يغلهـا كالمقطعينـا

ابتدأ البوصيرى هذه القصيدة بــالرفض التــام لكــل تصــرفات المستخدمين فهو ينقدهم لخيانتهم، ولسرقتهم أقوات الناس، وهو لــيس ظالماً أو متجنياً، فقد عاشرهم، واتصل بهم، ولهذا كان نقده لهــم نقــد الخبير المجرب الذى ينقد عن مشاهدة ومعاشرة ومتابعة ٠

إن الشهرة التى اكتسبتها هذه القصيدة لا ترجع إلى قيمتها الأدبية ففيها ضعف وابتذال، ولكن لما فيها من نقد اجتماعى، وتنديد بطبقــات المستخدمين، وتصوير صادق للبيئة المصرية، وللحالة الاجتماعية فى فترة من فترات ٠

قال الدكتور محمود رزق سليم فى تعليقه على هــذه الأبيــات : "وتلحظ فى الأبيات حرارة الإيمان فــى نزعــات الشــاعر، وصــدق إحساسه بمآسى قومه فى دواوين دولتهم، واختلاف طوائفهم، وتنــازع هذه الطوائف أموال مصر ، وغير أموالها"[١]٠

وليس هذا كل ما قاله البوصيرى لنقد الموظفين ورصد حركاتهم وكشف سرقاتهم فإن له الكثير الذى يغرى ويعجب خاصة وأن لبعض هذه النماذج المرفوضة رواسب متعددة من عهد الشاعر إلــى أيامنــا الحاضرة ٠

وجاهر برأيه فيهم ، ثم حكم عليهم جميعاً ، فقال :

أرى المستخدمين مشوا جميعــا ∴ على غير الصــراط المســتقيم

معاشر لو ولــو جنــات عــدن ∴ لصارت مــنهن نــار الجحــيم

---

(١) المرجع السابق ص٢٣٧ ٠

فمـــا مـــن بلـــدة إلا ومـــنهم ∴ عليهـــا كـــل شـــيطان رجـــيم

ولقد امتلأ قلبه بغضاً وكراهية لهذه الطبقة، ودخل معهم فى قتال مستمر، ورأى أن من واجبه محاربتهم ومقاومة طغيانهم ، ثـم تبـرأ منهم لكذبهم وخيانتهم فقال :

برئت من المستخدمين فخيـرهم ∴ لصاحبه أعدى وأدهى وأنكـر

هدرتهم مثـل الرمـاة لكـذبهم ∴ وعندى أن المرء بالكذب يهـدر

وأخذ يحرض عليهم كبار المماليك فقال :

فلا تدن منهم واحدا منك ساعة ∴ ولو فاح من برديه مسك وعنبـر

وبرد فـؤادى بانتقامـك مـنهم ∴ فقد كان قلبـى مـنهم يتفطـر

ثم دعا عليهم فقال :

فلا بورك المستخدمون عصـابةً ∴ فكم ظالم منهم علـى تعصـبا

إذا ما برى أقلامـه خلـت أنـه ∴ يسن لى ظفرا ونابـا ومخلبـا

وربما يفهم من هذه الأبيات أن الدافع إلى هذا النقد هو الغيرة من هؤلاء المستخدمين والحقد عليهم، فقد كانوا يعيشون فـى رغـد مـن العيش وبسطة من الرزق بينما يحيا الشاعر ــ وكان واحدا مـنهم ــ فقيراً معدماً، لكن الأبيات التالية لا تؤيد هذا الفهـم، وتؤكـد حـرص الرجل على المصلحة العامة ، فقد نقد عاملا "مستخدما" على أسوان ، وهذه البلدة فى أقصى الجنوب بمصر ، ولم يصل إليها البوصيرى لكنه

بالطبع سمع عنها، وعن عاملها المستبد فالنقد ليس موجهاً أو منصرفاً إلى مصلحة ذاتية ولكنه يتعلق بالمصلحة التى تهم كل المصريين قال:

انظر بحقك فى أمـــر الـــدواوين ∴ فالكل قد غيروا وضع القوانين

الكاتبون وليسوا بـــالكرام فمـــا ∴ منهم على المال إنسان بمأمون

اكشف بنفسك أسوانا ومن معها ∴ ومن الصعيد بلا قوم مســـاكين

لا تأمنن على الأموال ســـارقها ∴ ولا تقرب عـــدو الله والـــدين

قال شارح الديوان فى حديثه شعر البوصيرى، وفى تعليقه علـــى هذه القصيدة المذكورة :

" فما الذى دفع الشاعر إلى الحملة على مستخدمى أســـوان بعـــد المسافة بينه وبينهم ؟ لابد أن يكون قد سمع بما وقع على الرعية مـــن الأذى والظلم، ومصادرة الأموال، فنظم هذه القصيدة الطويلة، وهى تنم عن ثورة نفسية جاشت بين جوانح الشاعر، فانهال على موظفى أسوان بالمطاعن حتى أنه لم يترك منقصة إلا نسبها إلـــيهم "[١] فالشـــاعر لا يبغى إلا الإصلاح التام والنفع العام، وإلا لما وصل نقده، وامتد هجاؤه إلى عامل أسوان وموظفى الصعيد ٠

والأمثلة التى عرضت لها ــ وهـــى قليلـــة بالنســـبة لمـــا قالـــه البوصيرى فى هذا الشأن ــ تؤكد شيوع الفوضى، وانتشار الفساد فـــى ربوع المجتمع المصرى، وضعف النظام الإدارى ، وعدم قدرته فـــى

(١) الديوان ص٤٠ بتحقيق محمد سيد كيلانى طبعة الحلبى ٠

نشر العدل بين الناس، فضلاً عـن خـراب الـذمم، وتلـوث أيـادى المستخدمين بالسرقات والرشا ٠

والجانب المهم والذى لابد من التأكيد عليه هو اتجـاه الشـعراء بفنهم إلى خدمة المجتمع من خلال التوظيف الحكـومى ، والاحتكـاك المعيشى، ومقاومة العيـوب والانحرافـات مـن خـلال هـذا النقـد الاجتماعي، وهنا يكون الأدب قد أدى دوره، وقام بمهمته، ووصل إلى غايته من حيث الإمتاع والفائدة٠

موظفو الأقباط واليهود :

ونأتى إلى جماعات المستخدمين الذين كان لهم من نقد البوصيرى نصيب كبير وهم المستخدمون من الأقباط واليهود ، فلقد عاش الشاعر بينهم من خلال وظيفته الكتابية ، فمالطهم، وتابع أخبـارهم، وتطـور خلافه معهم إلى العقيدة، وله فى ذلك شعر كثير فليطالعه فى ديوانه من أراد، ولكن ما يعنينا هنا هو نقده لتصـرفاتهم ومهاجمتـه لـدعاواهم الباطلة فى نهب الأموال وغصب الثروات . فقال :

إن النصارى واليهـود معاشـر ∴ جبلوا على التحريف والتبـديل

ولم يقصر هجومه على هاتين الطائفتين بل حمل أيضاً على كتاب المسلمين لأن الرجل يستهدف المصلحة العامة قال :

وكيف نلوم فسـاقه النصـارى ∴ إذا خانت عـدول المسـلمينا؟

ثم عرض لطرف بسيط من صراع الطوائف بمصـــر، وتنــاول المسلمين كما تناول النصارى واليهود على السواء فقال:

يقول المســلمون لنــا حقــوق ∴ بها ولــنحن أولــى الآخــذينا

وقال القبط نحن ملــوك مصـر ∴ وإن ســواهم هــم غاصــبونا

وحللت اليهــود بحفــظ ســبت ∴ لهم مــال الطوائــف أجمعينــا

ولهذا لم يبد الشاعر متعصباً لفريق ضد آخر أو لطائفــة علــى حساب الأخرى .

نقد الوزراء وكبار الموظفين :

شمل البوصيرى بنقده الوزراء وكبار الموظفين فعاب تصــرفات بعضهم وكشف الأخطاء للكثيرين منهم ، ولنقرأ له :

أمولاى الــوزير غفلــت عمــا ∴ يــتم مــن اللئـــام الكاتبينـــا

فلا تهمل أمــور الملــك حتــى ∴ يـــذل الجنـــد للمتقمينـــا

وليست الغفلة من الوزير شيئاً هيناً مع أن وصفه بالإهمال أشــد وأفظع . ولم يرض الشاعر عن تصــرفات (ابــن عمــران) نــاظر الشرقية[1] فقال عنه:

وابن عمران وهو شــر متــاع ∴ للورى فــى بطانــة وظهــارة

يتجنى بسوء خلق علــى النــا ∴ س ونفــس ظلومــة كفــارة

---

(١) ناظر الشرقية أو أى بلد كالمحافظ الآن .

ولقد عاش البوصيرى فى الشرقية، وتنقل بين قراها ومدنها، وله قصيدة يذكر فيها بلبيس ، ويتحسر على الأيـــام التـــى قضــــاها بـــين ربوعها، ثم عاب أيضا (ناظر المحلة) وانتقد سلوكه فهجاه وجرسه بعد موته ، ودعا الناس إلى أخذ العبرة من نهايته السيئة قال(١) :

فبانَ نُصْحى لهم إذ مات ناظرهم ∴ وقد بَدَتْ للورى فى موته عِبَرُ

وجَرَّسُوه على النعش الذى حملُـوا ∴ من الفراش إلى القبر الذى حفروا

وكان جمَّـعَ أمـوالا وعـددها ∴ وظنها لصروف الدهر تُـدَّخر

حَسْبُ المحلـة لمـا زال ناظرهـا ∴ أن زال قد زال عنها البؤس والضرر

وقد انتقم البوصيرى لنفسه ولأهل المحلة من هذا الرجـل بعـد موته بهذا الشعر الفاضح . وحتى يتعظ به كل من تسول له نفسه خيانة الناس .

نقده لتصرفات القضاة والفقهاء :

يأتى نقد البوصيرى للطوائف المذكورة أولاً كتوطئة لنقد القضـــاة والفقهاء، مع اتجاهه إلى التصوف لكن ذلك لم يمنعه من التحدث عـــن انحراف هذه الجماعات لعظم خطرها، ولأنها تستولى علـــى الأمـــوال وتنهب الثروات بغتاً باطلة، وأدلة واهية، ولأنها أيضاً بما أوتيت مـــن فقه وعلم تطمس الحقيقة، وتزيف فى الشرع لأغراض ماكرة دنيئة .

---

(١) القصيدة فى الديوان ص١٣٥ وما بعدها، وعدد أبياتها مائة وستون.

وقد قرأنا نقده للوظائف الديوانية وسوف نقـرأ نقـده للوظـائف الدينية فمن الفقهاء يعين القضاة، ومن الكتاب العالمين بأحكـام الـدين يعين المحتسبون، ولاتصال هذه الطوائف بالرعية قال البوصيرى ناقداً تصرفات القضاة والفقهاء :

تحيلـت القضـاة فخـان كـل ∴ أمانتـه وسـموه الأمينـا

وكم جعل الفقيـه العـدل ظلمـا ∴ وصـير بـاطلاً حقـاً مبينـا

وما أخشى على أمـوال مصـر ∴ سوى مـن معشـر يتأولونـا

والأبيات اتهام صارخ للفقهاء والقضاة الـذين خـانوا الأمانـة، وصيروا العدل ظلماً، والباطل حقاً، وعمدوا إلى تأويل القرآن الكـريم والحديث الشريف تأويلاً يساير أغراضهم وأهدافهم ٠

وشارك البوصيرى بالرأى فيما أثير من خلاف فى زمن الظاهر بيبرس حول تعيينه لأربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وقد رفض بعض الفقهاء ذلك ، ورأوا فيه تمزيقاً لكلمـة المسـلمين، بينمـا رأى البعض فى ذلك توسعة ويسرا، وأيد البوصيرى صنيع الظاهر، ومـال إلى تعدد الحكام تبعاً لتعدد المذاهب ورأى أن هذا التعدد نعمة ورحمـة وقال فى ذلك :

بهم بنية الإسلام صحت وكيف لا ∴ تصح وهم أركانهـا والطبـائع

تفرقـت الآراء والـدين واحـد ∴ وكل إلى رأى من الحق راجـع

فهذا اختلاف جر للخلق راحـة ∴ كما اختلفت فى الراحتين الأصابع

وعندما تحول البوصيرى إلى مذهب المتصوفيين اشتدت حملتـه على الفقهاء لأنهم كانوا يحرضون الناس على المتصوفة، ولهذا اشـتد الخلاف بين الفئتين، وربما اندفع البوصيرى بسبب ذلك بعض الشـئ على الفقهاء لموقفهم من أهل التصوف .

فكان يرصد خصومه منهم، ويتابع تصـرفاتهم ، ويشـهر بمـا يستولون عليه من أموال الأوقاف .

وله قصيدة ملتهبة على لسان مسجد عبدالظاهر، يشتكى فيها مـن نهبوا مستحقاته، وأكلوا أمواله من غير حق، وعن مناسبة هذه القصيدة تقول مقدمة الديوان :

" وقد حدث أن الملك الصالح نجم الدين الأيوبى الذى تولى مصر سنة ٦٣٧هـ أخرج ثلاثة آلاف دينار لتوزع على طلبـة المـدارس، وعهد فى توزيعها إلى أحد الفقهاء، فلم يوزع شيئاً على طلبة مسـجد الشيخ عبدالظاهر، فنظم البوصيرى قصيدة على لسان هذا المسـجد ، بين فيها أن المال الذى أخرجه السلطان قـد اخـتلس" ومعـروف أن البوصيرى حفظ القرآن ، وتلقى العلوم فى هذا المسجد بالقاهرة. قال:

ليت شعرى ما مقتضى حرمانى ∴ دون غيرى والإلـف للـرحمن

أترانـى لا أسـتحق لكـونى ∴ جامعا شـمل قـارئى القـرآن

أم لكونى فى إثـر كـل صـلاة ∴ بى يـدعى لدولـة السـلطان

ثم قال :

أنا لا أنسب البهاء على ذا ∴ لك إلا لقلة الإيمان

مد فيها يد الخيانة فامتر إليه بالذم كل لسان

وعندما عرضت على البوصيرى وظيفة "محتسب" رفضها لما يرتكبه هؤلاء المحتسبون من جرائم باسم الدين . ولعدم معرفته بأسرار البيع والشراء وقال :

لا تظلمونى وتظلموا الحسبةْ ∴ فليس بينى وبينها نسبه

وقد يميل إلى الدعابة والفكاهة فى عرض وجهة نظره فيقول :

أوجع زيداً ضربا وأشبعه ∴ سبا كأنى مرقص الدبه

وهكذا بدا لنا البوصيرى صادقاً جريئاً غير متعصب لطائفة أو لجماعة، أو لأهل إقليم دون آخر ، وكان شعره الاجتماعى ترجماناً للبيئة المصرية، وتعبيراً عما يجيش فى صدور المكدودين الذين قهرهم الفقر، وأذلهم الحرمان .

– ٢ –

وربما يفهم (مرة أخرى) مما عرضنا له من أمثلة أن الرجل لا يهتم إلا بنقد العيوب وتجسيم الأخطاء، ولا يمتدح الأعمال العظيمة ، ويبدو بذلك سمارها مبغضا لكل شئ فيكون ذلك إساءة له، خاصة وأن الناس قد عرفوه بقصائده العظبمة فى مدح الرسول ﷺ وللدفاع عن الرجل، وإحقاقاً للحق حرصت على عرض بعض شعره الذى أشاد فيه ولم يهاجم ، ومدح ولم يشوه لتكتمل الصورة بكل ظلالها وألوانها .

قال مادحاً لناظر جديد على المحلة ومشيداً ببعض ما قدم لأهلها :

فطهر وجه الأرض من كل فاسد ∴ وما خلته من قبله يتطهر

ومهده للسالكين من الأذى ∴ فليس به الأعمى إذا سار يعثر

أنام الرعايا فى أمان وطرفه ∴ لما فيه إصلاح الرعية يسهر

ويتجه إلى الممدوح بالخطاب فيقول :

وأقبلت تحيى الأرض بعد موتها ∴ وفى الجود ما يحيى الموات وينشر

فها هى تحكى جنة الخلد نزهة ∴ ومن تحتها أنهارها تنفجر

وأعطيت سلطاناً على الماء عالياً ∴ به يزخر البحر الخضم ويسجر

فلقد نشر الممدوح الأمن بين ربوع البلاد، ومهد الطرق للسالكين، وقضى على اللصوص والخونة وقطاع الطرق حتى نامت الرعية فى أمن وأمان بينما هذا الناظر يسهر على راحة الناس ، ثم انصرف إلى

الأرض فأحيا مواتها وحولها إلى جنة خضراء تنفجــر منهــا الميــاه لتروى الزروع والثمار ٠

وللبوصيرى أشعار كثيرة فى هذا الجانب عرض فيها لمشــكلات البيئة ومتطلبات الرعية من خلال فن المدح الذى بزغ فيه، فكان ينتهز المناسبة ليشيد بالأعمال العظيمة وينبه إلى حاجات أهل الريف الــذين عاش بينهم ، وتعرف على أحوالهم ، وألم بشئونهم ٠

وقد قرأنا فى ديوانه شعراً كثيراً يمتدح فيــه الســلطان وبعــض الأمراء لبنائهم للمدارس والمستشفيات محيياً كل عمل صالح يعود نفعه على الناس ٠

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عن البيئة المصرية بكل طوائفها وفئاتها خير تعبير ٠

- ٣ -

للبوصيرى قصيدة طويلة رفعها إلى أحد الوزراء[١] يشتكى فيها حاله، ويتحدث عن مشكلاته الخاصة فى جرأة وصراحة، وقد لجأ فيها إلى الدعابة المضحكة فشر البلية ما يضحك . وقد وصف فى هذه القصيدة حال أسرته عندما تأخر راتبه فى شهر رمضان، وذكر فيها ما نجم عن ذلك من نزاع وشقاق بينه وبين زوجته، ولهذه القصيدة تحليل جيد فى كتاب "عصر سلاطين المماليك"[٢] للدكتور محمود رزق سليم فضلاً عن وجودها بالديوان وليرجع إليها فى مظانها من أراد.

وسوف أعرض لعدد بسيط من أبياتها نستكشف منها بعض ما تعانيه أسرة مصرية عند حلول شهر رمضان والعيد فى إحدى سنوات القرن السابع الهجرى .

قال البوصيرى :

إليك نشكو حالنا إننا ∴ عائلة فى غاية الكثرةْ

أحدث المولى الحديث الذى ∴ جرى عليهم بالخيط والإبرةْ

صاموا مع الناس ولكنهم ∴ كانوا لمن أبصرهم عبرةْ

إن شربوا فالبئر زيرٌ لهم ∴ ما برحت والشربة الجرةْ

لهم من الخبيز مسلوقة ∴ فى كل يوم تشبه النشرةْ

أقول مهما اجتمعوا حولها ∴ تنزهوا فى الماء والخضرةْ

وأقبل العيد وما عندهم ∴ قمح ، ولا خبز ولا فطرةْ

فكم أقاسى منهمُ لوعةً ∴ وكم أقاسى منهم حَسْرَةْ

---

(١) هو بهاء الدين بن على .

(٢) عن سلاطين المماليك المجلد الثامن ص

والمعنى فى هذه الأبيات واضح لا يحتاج إلى استجلاء وكشـف، وربما كانت هذه الحال معبرة عن أسرة البوصيرى، وعن حال الآلاف من الأسر التى تقل مواردها أمام العادات والتقاليـد الموروثـة فنشـأ النزاع ويشتد الخلاف ، ولازلنا نرى فى ريفنا المصرى نماذج كثيـرة تشبه فى معاناتها أسرة البوصيرى وقد تزيد عليها ٠

وفى تعليق للدكتور محمود رزق عن هذه الأبيات قـال : "هـذه أبيات مريرة، وإن تخللتها الفكاهة وسطور باكية وإن مازجتها النكتـة، وحكاية فيها العاطفة الحانية والأمل المرجو ، والأثرة الجاهلة، والغيرة القاتلة، والوشاية الحمقاء ، والحيلة الضعيفة، والشكاية اليائسة، والعادة المفترسة واللهفة المتحسرة والتساؤل المحرج"[١]٠

وفى نهاية هذه القصيدة الصادقة يحكى الشاعر ما دار بينه وبين زوجته من خصام وعراك إلى أن قذفته مآجرة وهددها بالطلاق إلى أن نامت الفتنة ، وهدأت الثورة بعد ليلة طويلة دب فيها الشقاق والنـزاع حول مقتضيات رمضان والعيد ٠

---

(١) عصر سلاطين المماليك المجلد الثامن ص٢٤٠ ٠

ـ ٤ ـ

من المتابعات السابقة نرى اهتمام البوصيرى بالدعابة المضـــحكة التى تترك أثرها فى النفوس، وقد ظهر ذلك فى القصيدة التى وصــف فيها حال أسرته فى شهر رمضان، وربما لجأ إلى الـتهكم والســخرية حتى سخر من نفسه ومن نظام حياته مثلما سخر من جماعة الموظفين أو من القضاة والحكام المتجبرين.

وهو فى شعره الاجتماعى يختلف اختلافاً كبيراً عنه فى شـــعره الدينى وبخاصة قصيدة البردة والأبيات فى اللون الاجتمــاعى ســهلة والأفكار واضحة والألفاظ ساذجة، والمعانى مبتذلة، والقيمة الحقيقيــة لهذا اللون تتمثل فى أهميته كوثيقة اجتماعية وكثورة علــى الأوضـــاع القائمة فى ذلك الوقت، وقد تابع البوصيرى فى هذا الاتجاه عدد قليــل من الشعراء، ومن هذا العطاء القليل أمكن التعرف على جوانب كثيرة من نظام الحياة فى هذا العصر.

والبوصيرى على كل حال رائد فى هذا المجال ـ مــع ضــعف شعره فى هذا اللون ـ كريادته أيضاً فــى المــدائح النبويــة شــكلاً ومضموناً على السواء.

بين البوصيرى ومعاصريه :

لقد انصرف بعض الشعراء فى هذا العصر إلى النقد الاجتماعى، وكانوا ألسنة صادقة فى التعبير عن معاناة الشعب، وقد وجــدوا فــى نظام الحياة التى يحيونها تحت حكم المماليك ما يشجع على هذا النقــد.

ونذكر منهم شهاب الدين الأعرج الذى حمل على التـرك والسـلطان فقال:

وكيف يروم الـرزق فـى مصـر ∴ ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كـل وجهـة ∴ لأنفسهم بالربع والثمن والخمـس
فللترك والسلطان ثلـث خراجهـا ∴ وللقبط نصف والخلائق فى السدس

فلقد جعل الشاعر لأهل مصر سدس الأموال، وجعل الباقى مـن نصيب الترك والسلطان والقبط ، وهذا الذى اشتكى منه الشهاب بح منه أيضاً صوت البوصيرى، وإن كان قد أضاف فريقاً آخر إلى من ذكرهم الشهاب وهم جماعة المستخدمين•

ومع تقدم الزمن فى هذا العصر زادت حركة النقد الاجتمـاعى، وعلا صوت الشعراء فى جرأة وشجاعة ، ومن الأصوات المخلصـة التى هبت لمقاومة العبث والفساد صوت الشاعر جمال الدين السلمونى الذى نقد القضاة، وندد بتصرفات بعضهم حتى سجن عـامين بسـبب قصيدة واحدة •

وقد اتجه الشعراء إلى عيوب المجتمع وسلبياته فجـاهروا بهـا، وأعلنوا الثورة عليها، وربما قاطع بعضهم منهج المماليك فى الحكـم ، وآثر العزلة لفساد الأوضاع الاجتماعية ومن هـؤلاء ابـن الـوردى (٦٨٩هـ ــ ٧٤٩هـ)•

وهو من شعراء هذا العصر ، ومن أكثرهم حكمة ومثلاً ونصيحة، وله شعر كثير فى الزهد وفى مدح الرسول، وكان يعمل قاضـيا، ثـم اعتزل الحياة ولجأ إلى الزهد ، وأثر حياة الخمول ومن شعره القليـل فى مجال النقد الاجتماعى ما قاله متفكهاً وساخراً من أحد القضاة:

لا تقصـد القاضـى إذا أدبـرت ∴ واقصـد مـن جـواد كـريم

كيف ترجى الرزق من عند مـن ∴ يفتى بأن الفلس مـال عظـيم

ويبدو أن الفساد قد استشرى بين القضاة حتى نقدهم، وكشف عن مخازيهم معظم الشعراء الذين اهتموا بالبيئة المصرية، ولعل فى كـل هذه الأمثلة ما يؤكد صدق البوصيرى فى دعاواه إذ كان بـين النـاس بمثابة مصلح اجتماعى يتتبع عيوب المجتمع فينبـه إليهـا ، ويـدعو لمقاومتها والقضاء عليها، مع الإشادة بالأعمال العظيمـة ، وبالرجـال الذين يخدمون البيئة فى عهد المماليك .

خاتمة

يتضح لنا من دراسة شعر البوصيرى بخاصة، وشعر زملائه من شعراء العصر المملوكى بعامة أن الشعر قد تخلف عن مستواه فى ما قبله من العصور، وأن الأسلوب الفنى كان فى حاجة إلى مزيد من الصقل والاهتمام، لأن شعراء هذا العصر قد أولعوا بالتعبير العادى عن الأفكار من غير أن يسمحوا للخيال بأن يوشى التعبير بألوان من الصور الزاهية وهذا يدفعنا للتساؤل عن سببه، وأغلب الظن أن خلو العصر من نقاد للأدب ذوى ثقافة رفيعة كالآمدى والجرجانى والباقلانى كان مدعاة هذا القصور الشعرى، لأن الناقد الأدبى يحمل مرآة التوجيه والإرشاد ! ولا ننكر أن بعض النقاد كانوا من رجال هذا العصر ، ولا زالت أعمالهم خالدة مع الزمن، وشاهدة على الجهد والعطاء ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا المستوى اللائق بالتوجيه، إذ جاروا الشعراء فى اتجاهاتهم وكان عليهم أن يرتقوا بهم ، ومهما يكن من شئ، فقد كان العصر عصر العلم المستوعب الجامع لا عصر الأدب الناقد المتوهج ٠

أهم المراجع

١ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان جـ٣ طبعة دار الهلال
٢ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ السيوطى طبعة الحلبى .
٣ ـ دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر : د. عبدالمنعم حامد جـ١ الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٤م.
٤ ـ ديوان البوصيرى ـ تحقيق محمد سيد كيلانى ـ طبعة مصطفى الحلبى.
٥ـ عصر سلاطين المماليك د. محمود رزق سليم المجلد الثامن.
٦ ـ فصول فى الشعر ونقده د. شوقى ضيف دار المعارف سنة ١٩٧٧م.
٧ ـ فوات الوفيات ابن شاكر الكتبى ، دار الثقافة بيروت .
٨ ـ المدائح النبوية فى الأدب العربى د. زكى مبارك ـ دار الشعب.

أبو القاسم الشابى
صوت مغرد فى سماء الشعر

تشحذ الذاكرة القومية أسنتها، وتضمد جراحها وهى تودع القــرن العشرين ·

ويذكر نقاد الأدب ورواده أبا القاسم الشابى الشاعر الرومانســى المحلق فى الآفاق العربية ، ذلك الفتى الأسمر النحيل الذى جاء إلــى الدنيا، ورحل عنها فى جزء قصير من الزمن بمقياس حياة الشعوب ، وجمع ديوانه (أغانى الحياة) وتركه وديعة للزمن إلى أن صدر فى عام ١٩٥٤م بعد عشرين سنة من وفاته بمقدمة ضافية من شــقيقه محمــد الأمين الشابى·

وقد ارتبطت أغانى أبى القاسم فى مكنون أعماقه بتــراث الأمــة الذى جمعت أغانى أبى الفرج جزءا من مكوناته، وارتبطــت بأغــان مصرية أخرى لمحمود حسن إسماعيل شاعر النيل والنخيــل والتربــة السمراء ، وبأشعار كثيرة للرواد من مدرسة أبوللو فى كل مكان·

لقد برز الشابى فى ساحة الإبداع الشعرى ، واختزن مــذكورات الأمة فى أعماقه، وضم إلى كل ذلك رغبته فى التجديد وقدرته عليــه، وقفز بشكل القصيدة ومضمونها قفزات كبيرة ورائعــة فــى مرحلــة قصيرة وخطيرة إبان الثلث الأول من القرن العشرين إذ هصر القــدر غصنه الرطيب فى التاسع من أكتوبر ١٩٣٤م بتونس العاصــمة بعــد خمسة وعشرين عاما هى كل حياته، ثم نقل جثمانه فى اليوم التالى إلى

مسقط رأسه بالشابية إحدى ضواحي مدينة توزر تلك المنطقة الوادعة التي تقبع في أحضان الجنوب التونسي الرحيب، ووري التراب لتطوى صفحة الحياة لشاعر حل ضيفا على الدنيا، وارتحل منها، ولم تطل إقامته بها، وعاش حياته القصيرة مثقلا بهموم أمته منذ أن راجع التاريخ القريب، وشاهد الواقع المرير الذي يسجل سقوط أكثر البلدان العربية في براثن الاستعمار الغربي، ولم يكن الاحتلال الفرنسي لتونس في عام ١٨٨١م إلا حلقة من حلقات الرغبة العارمة لدى الغرب في استيلائه على بلدان الشرق واحدة تلو الأخرى .

ولم تكن تونس آنذاك تخضع للسيطرة الفرنسية فحسب ، وإنما شملها حكم مزدوج قميئ مع بداية القرن العشرين، يجمع بين الفرنسين أولا، ويشارك فيه من يسمى بالباي، ولكي نتعرف على هذه الشخصية ونظام حكم البايات ننقل عن كتاب للأستاذ رجاء النقاش بعنوان (أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة) وجاء فيه :

" والباي هو الذي ورث الحكم عن أسرته المعروفة باسم الأسرة (الحسينية) التي ظلت تحكم تونس منذ سنة ١٧٠٥م إلى سنة ١٩٥٦م حيث أعلنت الجمهورية التونسية، وتم خلع آخر "البايات".

والباي كلمة تركية كانت تطلق على حاكم تونس عندما كانت خاضعة للأتراك، وهي كلمة تشبه الخديوي في مصر "[1].

---

(١) أبو القاسم الشابي ـــ رجاء النقاش صـ٧، ٨ دار المعارف بمصر .

واستسلم الميدان التجارى لليهود بمعاونة الفرنسيين، أما الطامة الكبرى فقد شملت التعليم الذى وجه لخدمة المحتل حيث لم ينتظم فيه إلا نسبة قليلة من أبناء تونس.

وهل معنى ذلك أن الحياة كانت مظلمة تماما ؟

كلا ! فقد انبعثت بعض الأنوار القادمة من الشرق حيث يحيا إلى الأزهر فى مصر بعلمائه ومثقفيه ورواد الفكر فيه والوافدين إليه كالشيخ جمال الدين الأفغانى فضلا عن عدد لا يستهان به من مشايخ جامع الزيتونة الذين كانوا يتحاورون مع العلماء القادمين إليه حول قضايا الثقافة والفكر والمعتقدات السياسية، ولكن التوجه العام لهؤلاء الرواد قد انطلق إلى الثورة على الأوضاع بعمامة الدين وحق الوطن وعبق التاريخ.

ولقد ولد أبوالقاسم بتلك البيئة القلقة المضطربة فى الرابع والعشرين من فبراير عام ١٩٠٩م فى بيت يشع منه العلم والنور والإيمان بمصابيح والده محمد أبى القاسم الذى كان يعمل قاضيا شرعيا، وتمتلئ داره بالرواد، ويكثر فيها النقاش والحوار حول العديد من القضايا الفكرية والدينية والأدبية ، والتى تزخر بها كتب التراث ومؤلفات القدماء.

ودفع به والده لمكتب تحفيظ القرآن وهو فى الخامسة، وأتم حفظه فى التاسعة، وبقى عامين أخرين فى الشابية ينهل من كتب الدين واللغة

والتصوف والفلسفة التى وجدها بمكتبة والده، فصار مجهزا لمرحلـة أخرى من حياته .

انتقل أبوالقاسم فى الحادية عشرة من عمره إلى معهد علمى راق تقترب مناهجه بما يقدم فى مجالس الدرس بالأزهر ، وذلك هو جـامع الزيتونة بتونس (العاصمة) الذى استمرت دراسته به حتى تخرج منـه بعد سبع سنوات من القراءة والبحث وكد الذهن وإعمال الفكر وشـحذ القريحة وتيسر له أن يطلع على أعمال شعراء المهجر وقراءة التراث العربى والأعمال المترجمة لشعراء الغرب.

وزاد إحساسه بالألم على ما لحق بأمته، ونمت موهبته ، واستوت ملكة الفن لديه، وبدأ فى نشر إبداعاته بتونس، ثم فى خارجها، وصاغ تجربته الشعرية والتى لقيت بعض المعارضة ممن يتعصبون للقـديم، ورصد ظواهرها وملامح التجديد فيها بقلمه النثرى، وقـدم محاضـرة عن (الخيال الشعرى عند الغرب) وسيطرت أحزانـه لواقـع الأمـة وحاضرها الممض ، وانضم إلى كوكبة الشعراء العظام فـى مصـر والشام والعراق، وسار هواؤه مع بعض رياح التجديد التى هبت مـن الشرق محملة بكل توجه حميد تنشده مدرسة أبوللو، فتجاوبت تجربتـه مع الرغبة فى صياغة فن جديد، وبدأ يبحر موضوعات الشعر القديمة، ويهجر معها كل العبارات الفارغة، والتقاليد العرجاء والنغمة الخطابية الجوفاء، ولكن هذه الثورة على بعض القديم، وما يتبعها من رغبة فى

التجديد أوصلت علاقته بمعاصريه إلى حافة الهواية فـزاد إحساسـه بالغربة والضيق والمعاناة •

فقال فى بعض مذكراته :

" أشعر أنى غريب فى هذا الوجود، وإننى ما أزداد يوما فى هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعورا بمعانى هاتـه الغربـة الأليمة، غربة من يطوف مجاهل الأرض، ويجوب أقاصى المجهـول، ثم يأتى ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدا منهم يفهم مـن لغة نفسه شيئا " •

ثم يصرخ فى صوت منخفض ، ولكنه مليئ بالألم :

" الآن أدركت أنى غريب بين أبناء بلادى ... وتلك مأساة قلبـى الدامية"[١].

ونفتتح ديوان شعره باختيار يعبر عن هذا الإحسـاس بالغربـة : قال فيه:

أيها الشعب ليتنى كنـت حطّابـا ∴ فأهوى على الجـذوع بفأسـى

أنت روح غبيـة تكـره النـور ∴ وتقضى الدهور فى ليل ملـس

إننى ذاهب إلى الغاب يا شـعبى ∴ لأقضى الحياة وحدى بيأسـى

ثم أنساك ما استطعت فما أنـت ∴ بأهـل لخمرتـى ولكأسـى[٢]

---

(١) السابق ص٣٧ •

(٢) ذكرها النقاش فى كتابه ص٣٧ •

لم يخلع الشابى عباءة التراث ، ولم يستسلم له تماما، فخط بمـداد شاعريته ألوانا من التجديد فى اللغة والصورة والموسيقى حريصا على تصوير البيئة وتضميد جراحها .

وفى الوقت الذى بدأ المرض[1] يعبث ببدنه فقد شـاعر الشـابية والده فى عام تسعة وعشرين وتسعمائة وألف، فكان الحدث نكبة طاغية استسلم معها أبوالقاسم للحزن، وزاد همه بتبعات الأسـرة، ومشـقات العلة وهموم النفس، وزاد ألمه بما لحق به فى شرخ شـبابه، وتحـول فكره إلى بحث عميق فى فلسفة الحياة، وما كان لنفسه أن تهدأ وهـى ترى نذر الموت تحيط به معلنة عن قرب النهاية تلك اللـواعج التـى شغلت النقاد فكتب عنها الدكتور شوقى ضيف قائلا :

" وتصادف أن كان إحساس أبىالقاسم جادا، وجعلته جدته محبـا للحياة، وشعر برعوس أفاع تمتد إليه فى طريقه، فتمنعه من المسير بل ترده إلى داره إن لم يكن إلى فراش علته، فرجع محزونا يجرر أذياله والكآبة قد ملأت نفسه، وملأها أيضا الإحساس الدقيق بالكارثـة ومـا ينتظره من موت عاجل محتوم"[2].

وزاد إقباله على الشعر فأخذ يشدو بالناى الحـزن، هاربـا إلـى الطبيعة، أو فارا إلى بحث هموم النفس وأثقال الحياة، وتحولت هواتف الغيب إلى أغان رومانسية مجللة باللوعة والأسى.

---

(١) كان أبوالقاسم مريضا بتضخم فى القلب .

(٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر د. شـوقى ضـيف صـ١٤٤ (دار المعارف بمصر ١٩٧٤م).

لقد كان يضع الثلج فوق صدره لتبرد نيران قلبه وآلام صـــدره، وهو يشهد شمس حياته تتوارى خلف التخوم ، وأوراق حياته تذبل ولا يجدى معها ماء ولا رواء، فقد بدأت تتساقط، وأخـــذ المـــرض يقهـــر نشاطه وقوته وحيويته، ويغفو فيغيب بين الغصون مستســـلما لهجعـــة الكرى وطيف المنون، ويضحو على أناشيد الـــوداع ، فيرثـــى نفســـه مناجيا الموت الجسور، قال :

أرأيـــــت أم الطفـــــل تبـــــــ ∴ كـــى ذلـــك الطفـــل الوحيـــد
لمـــــا تناولـــــه بعنـــــــ ∴ ف ســـاعد المـــوت الشـــريد
أســـمعت نـــوح العاشـــق الـــ ∴ ولهـــان مـــا بـــين القبـــور
يبكـــــى حبيبتـــــه فينـــــا ∴ لمصارع المـــوت الجســـور[1]

وينتقل من الغاب الموحش إلى الليل الدامى بما فيه مـــن بـــؤس وهول وشقاء، فيناجيه مصورا محنته وشقاءه، وأمواج ظلامه، فجاءت أشعاره فى الطبيعة ذات أحمال ثقال تذوب معها الرومانسية بمصـــارع الناس والهروب إلى الغارب مما جعل ديوانه مزيجا من الأمل والألـــم والحزن على مجتمعه الذى تفتحت عيناه على أرزائه، وكـــذلك علـــى نفسه التى خضعت لمحاسبة ومراجعة دقيقة، وهكذا صاغ تجربته فـــى ديوانه (أغاني الحياة) ٠

---

(١) السابق ص١٤٨ ٠

ويخطئ من يظن أن أحزانه حجبت رؤيته على مصائر الـوطن فقد كان يهتف بأعلى صوته مرددا أنشـودته الرائعـة (إرادة الحيـاة) والتى كنا نصيح بها فى مرابع الصبا ومدارج العلم، ولا زالت معبـرة عن رفض الشعوب لكل غاز دخيل ، قال :

إذا الشـعب يومـا أراد الحيـاة ∴ فلابـد أن يسـتجيب القـدرْ

ولابـد لليـل أن ينجلـى ∴ ولابـد للقيـد أن ينكسـر

ومن لم يعانقه شـوق الحيـاة ∴ تبخـر فـى جوهـا وانـدثر

وقال :

إذا مـا طمحـت إلـى غايـة ∴ لبست المنى وخلعـت الحـذر

ولم أتخـوف وعـور الشـعاب ∴ ولاكبـة اللهـب المسـتعر

ومن لا يحـب صـعود الجبـال ∴ يعش أبد الدهر بين الحفـر(١)

أما رغبته فى الحياة فلا يعدل أى شعر ــ فـى أكبـر الظـن ــ قصيدته المعروفة بنشيد الجبار ، والتى كان الـدكتور محمـد منـدور يرددها قبل وفاته ، تلك الأنشودة التى جأر بها الشابى فقال :

سأعيش رغم الـداء والأعـداء ∴ كالنسر فوق القمـة الشـماء

أرنو إلى الشمس المضيئة هازئـا ∴ بالسحب والأمطـار والأنـوار

لا ألمح الظـل الكئيـب ولا أرى ∴ ما فى قرار الهـوة السـوداء

وأسير فى دنيا المشاعر حالمـا ∴ غردا وتلك طبيعـة الشـعراء

---

(١) السابق ص١٥٢ .

وتسكن جراحه وتهدأ منازعه ، ويعد نفسه للـوداع، وتضـعف شرايينه، ويجفف دموعه، وتتوارى أحزانه فيغنـى أو يبكـى بعـد أن استوى لديه نوح الباكين وترنم الشادين ، فيودع الدنيا وتونس والشعر، ويتوارى جثمانه، ويبقى فنه ويحفظ الناس أغانيـه، ويحملـون كتبـه ومذكراته، ويتبادلون رسائله ومحاضراته .

ويخلد فى وجدان الوطن الذى شغل نفسه به أكثـر ممـا شـغل بزوجته وطفليه الذين لم يذكرهم أحد؛ لأن المثقف العربى الـذى قـرأ لأبى القاسم الشابى فى سنوات القرن العشرين لم يجد بين تلك الحقبـة شاعرا ترك الدنيا فى مثل هذه السن وقد خلف زادا حيا وفنـا صـادقا وشعرا نابضا تجتمع فيه أصالة التراث وتجديد المحدثين، وينبع منـه كل إحساس بالألم والحزن والاغتراب .

شعر الفصحى

بين التقليد والتجديد[١]

مدخل تحدث القدماء والمحدثون عن أولية الشعر العربى، وأرجع الجاحظ بداياته إلى ما يقرب من مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وذكر بروكلمان أن بداية الكلام الفنى المنمق كانت نثراً فنياً تتفق فواصله فى الحرف الأخير، ذلك النسق الذى اختار البلاغيون له اصطلاح (السجع)، ثم تولد منه الرجز، والذى انبثقت منه البحور الشعرية الأخرى.

ولقد خضع النظام الشعرى فى بواكيره المتقدمة لأنظمة ثابتة من حيث الشكل الذى يتمثل فى الأوزان والقوافى،والألفاظ والتراكيب، ومن حيث المضمون الذى صاغه الشعراء فى القوالب الفنية المتوارثة من جيل لآخر، حتى وصلت مسيرة الشعر إلى مرفأ الحياة المعاصرة فى رحلة طويلة شاقة، وسط هدير الأمواج وعواصف الأيام. وتعرض الشكل لكثير من ظواهر التمرد والجموح خاصة فى الوزن الذى لم يكن تجديدا بقدر ما كان خرقا لنظام تجاوز مرحلة الطفولة ، وابتدأ عهد الشباب المبكر أيام (عبيد بن الأبرص) شاعر بنى أسد، وصاحب القصيدة المشهورة :

أقفر من أهله ملحوب ∴ فالقُطَبِيّات فالذَّنُوب

---

(١) بحث مقدم لمؤتمر الشرقية الأدبى المنعقد فى مدينة الزقازيق أيام ١٣، ١٤، ١٥ من أبريل ٢٠٠٢م .

فـــــــراكس ، فثعالبــــــــات ∴ فـــذات فـــرقين فالقليـــبُ[1]

وقد جمع فيها بين أنواع متعددة من مجزوء البسيط ، حتـــى رأى البعض أنها شعر مختل الوزن، فقال أبو العلاء المعرى فى شعر عبيد:

وقد يخطئ الرأى امرؤ وهو حازم ∴ كما اختل فى وزن القريض عبيـد[2]

وشرع البعض فى عصور تالية فى إظهـــار براعتـــه وتفوقـــه، ففرض على نفسه التزامات إضافية إلى القواعـــد التقليديـــة الخاصـــة بالقافية، وكان أبوالعلاء مقدما فى هذا الخروج علـــى النســـق القـــديم، وصاغ منه ديوانا ضخما تصل عدته إلى عشرة آلاف بيت .

وقد خضعت القافية لمزيد من التطوير والتجديد ، وظهرت لهـــا أنساق جديدة لم يسبر غورها القدماء، وتعالـــت الأصـــوات اللاهجـــة بالدعوة إلى تنوعها ، والخروج بها من دائرة البيت إلـــى الســـطر أو الجملة ، وبدأ التمرد على النظام التقليدى للقافية بأوزان وطرق جديدة، وتجلى فى طرق عديدة مثل المزدوج ، والمشطر، وهذا الأخيـــر لـــه صور كثيرة٠

وكانت الموشحات من أشهر الدعوات إلى الانفلات مـــن عمـــود الشعر العربى، ثم انتقل الوزن التقليدى إلى مرحلة جديدة فـــى القـــرن العشرين مع موجة الشعر الجديد المسمى بالشعر الحر الذى لم يتوقف

---

(١) ملحوب: اسم ماء لبنى (أسد) ، والقطبيات مفردها قطبيـــة موضـــع مـــاء ، وانظر كتاب شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٣٦٥ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥ ٠

التطور فيه عند مرحلة معينة ، وقد قوبل بموجة من الرفض فى بداية ظهوره ، وما زال البعض لا يستسيغه ، ولا يقتنع به ، لكنه صار واقعا لا يمكن إنكاره، وكيف ينحى عن ساحة النقد، وصوت قصيدة النثر يزداد من يوم لآخر بدعوى الحداثة والتجديد ٠

أما اللغة الفصحى فلم تكن بهذا القدر من التحول فقد بقيت على موروثها القديم وزنا ونحوا وصرفا وبلاغة؛ إذ إنها اللغة التى أفصح بها العربى قبل الإسلام ، وهى التى وسعت كتاب الله ، وحفظت تراث المسلمين ، لكن أمورا كثيرة أسهمت فى نمو لغات أخرى ولهجات متعددة ، تختلف من إقليم لآخر، وربما تتنوع فى الإقليم الواحد ، وأطلق عليها اصطلاح (اللهجة العامية)، وصارت اللغة الفصحى قسيما لها٠

ومما أسهم فى نمو اللهجة العامية دخول بعض الكلمات الأجنبية فيها مما ساعد فى تحريف اللغة الفصحى ، لكنها لم تتراجع، ولم تمح من ذاكرة الواقع؛لخضوعها لقواعد النحو والصرف والإملاء، وتنوعت الأقاليم الناطقة بالفصحى مما جعل أهلها يتفاوتون فى مقدار تمسكهم بها، على أن هذه الأمور أسهمت فى تكوين اللهجات العامية التى لم تكن قاصرة على النطق والتعامل اليومى ، وإنما دخلت ساحة الكتابة الأدبية، وظهر ذلك فى أزمنة كثيرة، وفى نماذج أدبية عديدة مثل بعض القصص والمسرحيات والقصائد والأزجال والموشحات٠

وهكذا صارت الفصحى التى عاشت حياتها لغة وحيدة للتـأليف العلمى والصياغة الأدبية تواجه تمردا لا فى النطق فحسب ، وإنما فى الكتابة أيضا، وأصبح الأدب الشعبى غير قاصر على المـوال، وإنمـا تجاوزه إلى بعض الفنون الأخرى مثـل الشـعر والقصـة، وتعالـت الأصوات المطالبة بكتابة الحوار فى المسرحية باللهجة العاميـة،ادعاء بأنها لغة الحديث، وأن الواقعية تفرض النطق والتعبير بها،وأن كثيـرا من الأغانى والأناشيد تخاطب العامة فمناسب أن تكون مصاغة بلهجة يفهمونها، ويتجاوبون معها ٠

يقول أحد الباحثين عن علاقة الفصحى بالعامية :

" إن الفصحى ــ وهى لغة مكتوبة غالبا ــ تعد معبرا عن الوحدة السياسية للعالم العربى، بل هى أيضا المقوم الأساسى للوحدة فى كـل قطر ، وهى تحظى بمكانة خاصة أقرب إلى التقديس عند الناس جميعا ، فهى لغة الدولة بكل هيئاتها ، وهى لغة التعليم بكل مراحله ، وهـى لغة العلم بكل فروعه ، وهى اللغة التى نعلمها لمن يريد تعلمهـا مـن الأجانب، ومن ثم فإننا نعدها قرينا للغـات الأخـرى، ومعبـرا عـن شخصية الأمة . أما العامية وهى لغـة منطوقـة فحسـب ، فتختلـف باختلاف الأقطار بل وتختلف باختلاف المناطق فى القطر الواحـد ــ وهى ترتبط بالأمية، وبأداء الحاجات العملية البسيطة ومن ثم فإنهـا لا

تمثل أداة كافية للفكر الراقى ... "[١] على أن إيراد بعض الكلمات العامية أو الأجنبية فى الأسلوب لا ينال من الفصحى، ولا يجعل منها لغة عامية أو أجنبية،وأن تطور اللغة أمر لا ينبغى إغفاله، كما لا ينبغى أيضا إغفال الآداب الشعبية التى صيغت بلهجات منشقة من الفصحى وليكن ذلك فى نطاق ضيق، ما دامت العامية منتشرة فى لغة الحديث التى تختلف من إقليم لآخر، وليست واحدة مثل اللغة الفصحى، وهكذا لم يسلم شعر الفصحى من ظواهر متعددة خرجت به من دائرته القديمة إلى مجالات مختلفة ، ونماذج متنوعة تختلف فى الحاضر عن الماضى فى الشكل والمضمون ٠

وشهد الكثيرون بمرونة اللغة الفصحى بسبب وجود الإعراب فيها على عكس اللهجات العامية التى سقط الإعراب منها، وصار من المؤسف أن تنمو رغبة أو دعوة لتوسيع نطاق الكتابة بالعامية وعدم الاكتفاء بها فى مجالات أدبية محددة ٠

ولقد كتب الدكتور / محمد غنيمى هلال فصلا بعنوان (واجبنا نحو اللغة) حذر فيه من اتساع الفجوة التى تفصل بين الطوائف التى تنشد فيهم اللغة تحريرها ونهضتها ، ودعا لضرورة الحفاظ على اللغة الفصحى [٢] ٠

---

(١) من مقال بعنوان [الفصحى والثقافة العربية المعاصرة] للدكتور محمد حسن عبدالعزيز ، منشور بالمجلد الخامس من محاضرات نادى جدة الأدبى عام ١٩٨٨م ، ص ٣٣٧ ٠

(٢) انظر كتاب (قضايا معاصرة فى الأدب والنقد ص١٧٢) ٠

لقد خضع الشعر التقليدى للقواعد المتوارثة ، وبالغ فيها معظم شعراء العصر العثمانى إلى أن جاء (محمود سامى البارودى) فلم يرض بالاتجاه السائد فى عصره بما فيه من تكلف ممقوت فى الشكل والمضمون ، وسلك منهجا تجديديا عرف بالبعث والإحياء ، فعاد إلى العصر العباسى، وإلى الحقبة التى كان الشعر فيها قويا متميزا ، وسار على دربه جماعة من الرواد الذين حافظوا على جزالة الديباجة، ونحت الشعر من (رخام) اللغة كما تنحت التماثيل، ومن أشهرهم (أحمد شوقى) و(حافظ إبراهيم) و(عزيز أباظة)٠

وحرص — فى اتجاه آخر — جماعة من المجددين للشعر التقليدى منهم (عباس العقاد) وأتباع مدرسة الديوان الذين لم يتخلوا أبدا عن القواعد المستقرة ، ولم يرضوا عن الشعر المنثور الذى بزغ نجمه فى سماء الشعر المهجرى، وكثرت الجماعات المجددة مع اختلاف بين دعاتها مثل أبولو والغربال٠

ومن هؤلاء التقليديين (على اختلاف درجاتهم فى التجديد ومذاهبهم فى الرؤية والمضمون) من خضعوا للعروض القديم ، ومن خرج عليه ، أو جدد فيه وكان خروجه استجابة للذوق الموسيقى، وقد كتب عزيز أباظة مقدمة لديوان الشاعر / عبدالله شمس الدين، حدد فيها جانبى الصراع بين القديم والجديد، أو بين التقليد والتجديد فى أمرين هما :

الموسيقى ، وطرائق التعبير . ولم يجد كثير من الشعراء ضـــيرا من التجديد فى الأوزان الشعرية ، فظهر الشعر المرســل ، والشــعر الحر ، وأوزان أخرى بأنساق جديدة، أما النثر الشعرى فكــان ـــ ولا زال ـــ دعوة محدودة لم تلق تأييدا يجعلها تشغل موقعا فـــى خارطـــة الشعر الحديث ؛ لأنها ليست تطويرا لشعر قديم ، وإنما هى استنســاخ ومزج لمجموعة من الألوان التى تأتى تقليدا للغــرب وانســلاخا مــن القواعد العربية الراسخة(١) .

---

(١) انظر جريدة الأهرام فى يوم ٩ / ١٠ / ١٩٩٤م لمطالعة مقالــة الــدكتور/ صابر عبدالدايم بعنوان (قصيدة النثر ومزاعم المتشاعرين) وقد نوه فيها إلى رفض الدكتور / محمد مندور ونازك الملائكة لهذا اللون المســتحدث مــن الشعر .

شعر الفصحى

اتجاهات متعددة وألوان متجددة

[١] التيار الاجتماعى فى شعر أحمد عبدالمجيد الغزالى:

جمع الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالى بين العديد من الفنون الأدبية والنقدية ، وقد انتسب إلى قرية (غزالة الخيس) وتخرج من كلية دار العلوم ، وعمل مديرا لمكتب نائب رئيس الجمهورية فى عهد الثورة المصرية، وتفرق شعره بين العديد من الكتب والمجلات ، وقدم العديد من البرامج الإذاعية فى مصر والسعودية، وتوفى ودفن بقريته فى ١٩ / ١ / ١٩٦٢م. وقد جمع شعره قبل وفاته ، وأعده للطبع فى ديوان، وجعل عنوانه(أحلام الفجر)، وكتب معالى الوزير/ إبراهيم الدسوقى أباظة مقدمة له فى ليلة من أمسيات الريف بقرية (غزالة)[١].

وكانت قصيدة (أريد) هى التى استهل به الشاعر ديوانه حيث يقول:

أريد أن تسكبى الأنغام فى خلدى ∴ شيعت أمى فهلا تبعثين غدى ؟

مالى وقيثارة شدت على خشب ∴ وأنت قيثارة شدت على كبدى

جف النشيد على أوتارها فغدت ∴ بكماء لا تحتفى بالطائر الغرد

طوقتها حانيا أبكى لياليها ∴ كما حنا والد بر على ولد

وجددى عهدها الماضى فإن عرضت ∴ ذكرى أناشيدها فى الحب فاتئدى

---

(١) وميض الأدب بين غيوم السياسة لإبراهيم دسوقى أباظة ص١١٢

وتحدث الدسوقى عن صدق العاطفة عنـد الغزالـى؛ ذلـك لأن العاطفة عنصر مهم من عناصر التجربة ، فقال فى المقدمة التى أعدها لأحلام الفجر :

" صاحب (أحلام الفجر) شاعر تنبض العاطفة الجياشة فى كل ما يصادف القارئ من قصائده ومقطوعاته ، ولن تجد بين هذه القصائد ـ أيا كان موضوعها ـ قصيدة نبا بها الموضوع عن العاطفة المحتدمة ، والشعور الملتهب فهو يتجاوب مع موضوعه تجاوبا شاملا عميقا، يأخذ عليه أعماق حسه، وقرارة وجدانه ، حتى قصائد المناسبات التى اشتمل عليها ديوانه، تجده قد عقد بينه وبين المناسبة بخيوط قوية من نسـيج شعوره[١].

ثم تحدث عن مجموعة من القصائد ـ ومنها واحدة عن أمجـاد اللغة العربية ، واختار بعض الأبيـات مـن ملحمـة الـزورق مـن المقطوعتين الثانية والتاسعة، وختم كلمته بحديث موجز عـن قصـيدة (القمر) مؤكدا عناية الشاعر بالشكل والمضمون ٠

ينتمى شعر "الغزالى" إلى الاتجاه التقليدى الذى تنصرف العنايـة فيه إلى الأغراض الشعرية المعروفة ، وإلى الأوزان الخليلة المتوارثة، إذ لم يكن تيار الشعر الحر قد هب على البيئة العربية فـى تشـكيلاته الموسيقية وألفاظه الجزلة ومضامينه المتجددة ، ويبدو أن الكثير مـن شعره لم يعتن به فى حياته أو بعد وفاته ، فضاع من الـزمن ، أو أن

---

(١) السابق ص ١١٣ ، ١١٤ ٠

جزءا منه فى موضع آمن بعيد عن الأيدى والعيون ، فبقـى الشـاعر مغمورا لا يذكره إلا القليل من الأصدقاء٠

وإذا كان "الغزالى" قد عاش معظم حياته قبل الثورة قريبـا مـن الطبقة (الأرستقراطية) فإنه لم ينس هموم الإنسان المصـرى، فهتـف بصوت الحرية والاستقلال، وغنى للوحدة العربية فى مجموعـة مـن القصائد، منها : (الثورة والاشتراكية) و(الوحدة الكبـرى) و(موكـب الوحدة)٠

وقدم مجموعة من الملاحم الشعرية فى الإذاعة، إحداها فى عشر حلقات بعنوان (ليالى العرب) وملحمة بعنوان (العـودة) وهـى عـن اللاجئين ، وأخرى عن (المثنى بن حارثـة) ، فضـلا عـن ملحمـة (الزورق) التى تحدث (الدسوقى) عنها ، واختار أبياتا منها ٠

أما أكثر ما قدمه من ملاحم شـعرية فكانـت بعنـوان (موكـب النبوة)، وقد تميز (الغزالى) بهذا الشكل الدرامى المثير الذى يعلو فيـه صوت الجماعة على صوت الفرد؛ ليتواكب مع صوت الثـورة الـذى يزأر بصوت الجماهير . وإذا وازنا ما وصلنا من شعره قبل الثورة بما وصلنا من شعره بعدها فسوف نجد الرجل قد تحول تحولا جذريا إلـى التيار الاجتماعى ، فتحدث عن قضايا الشعب، وآلام الجماهير ، وليالى العرب، ومأساة فلسطين، ومن قصيدة له عن حقوق الفلاح فى ظـلال الثورة قال:

ذاب فى أرضه ، وفوق ثراها ∴ عرقا سال فى الربى والبطـاح

فزهت روضة ورفت ظلالا ∴ تتهادى بين الشذا الفواح
لم يعد شوكها له ، وسواه ∴ ناعم بين وردها والأقاحى
عز فى أرضه الذى عاش دهرا ∴ دامى القيد ، مستذل الجناح
مزق العبد قيده ، ورماه ∴ ومضى فى الحمى طليق السراح(١)

وكانت حقوق الفلاح مهضومة قبل الثورة إلى أن جاءت فردت إليه كثيرا مما سلب منه .

تميل اللغة فى الشعر الاجتماعى إلى السهولة والخفة ، فهى تخاطب بصوت الحقيقة ، وتنأى عن التأنق ، وهذا اللون كان محل ترحيب وحسن استقبال من المستمعين والقراء . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن (الغزالى) لم يكن مغيبا عن الأمة وهمومها فى كل شعر ينشده، وحتى لو كان فى حفلة تكريم لوزير أو أمير ففى قصيدة يشيد فيها بأمجاد (الدسوقى أباظة) قال:

اذكروا مصر والليالى دماء ∴ صارخات بحقها مجنونه
هاجه أن يضام فى مصر حر ∴ فمضى يمسح الدموع الهتونه
لن تراه إلا مجدا دؤوبا ∴ يدع الغاية البعيدة دونه
سمة النبل فى الجهاد التفانى ∴ إن فى النبل غثه وسمينه(٢)

ولم يقتصر الغزالى فى شعره على هذا اللون الذى يتحدث فيه عن أعلام مصر البارزين ، وهمومها الثقال ، وإنما خلد إلى نفسه،

---

(١) أثر الثورة المصرية فى الشعر المعاصر د/أحمد أحمد بدوى ص٩
(٢) ذكرى يوم خالد للأستاذ ابراهيم الدسوقى أباظة ص ٤٩ ، ٥٠ .

فعبر عن شجونه فى شعر يجمع بين رقة الألفاظ وعذوبــة المعــانى ، ورهافة الأحاسيس. قال فى قصيدة بعنوان (أشواق) :

يا نبع إلهامى ظمئت إلى المنى ∴ فاروى بأنــداء المنــى إلهــامى
فى خاطرى أمل يرف وفى دمى ∴ شــوق يعربــد فــى فــؤاد دام
يتلمسان عهود حبك فــى غــد ∴ فارعى عهودى فى الهوى وذمــامى[1]

لقد عاش "أحمد عبدالمجيد الغزالى" قبــل ثــورة يوليــو ١٩٥٢م وبعدها، وغنى لمصر والوطن العربــى، وطالــب بحقــوق العمــال والفلاحين فى شعر رصين، وكتب العديد من الملاحم الشعرية، وغاب صوته بوفاته، إذ كانت أشعاره الاجتماعية تعبيرا عــن مرحلــة تــم تجاوزها،وهذه سمة الشعر الــذى يــرتبط بأحــداث ومراحــل ذوات اتجاهات محدودة، ولذلك فإن شعره عن قضايا العامل والفلاح وهمــوم المجتمع فى عهد الثورة أقصر عمرا إذا ما قورن بالقصائد التى تتصل بالهموم العامة والعواطف الخاصة والأيام الخالدة، واللغــة القوميــة، والملاحم الدينية ٠

ويبدو أن اتجاهه إلى الشعر الدرامى الذى يــؤدى فــى الإذاعــة والمسرح كان سببا فى انصرافه عن الشعر الغنائى الذى يهش النــاس له ويقرؤنه فى منتدياتهم الأدبية ، ويتعرضــون لــه بالشــرح والنقــد والتفسير، وربما كان اتجاهه إلى هذه المواكب أو الملاحم هو التجديــد البارز فى الشعر التقليدى الذى عرف به ، وسار عليه طــوال حياتــه وإن كان نتاج الرجل من الشعر والنثر على اختلاف أشكاله فى حاجة إلى تجميع شامل، وقراءة موسعة، وطبع دقيق، وإخراج سليم ٠

---

(١) مجلة الهلال ص ٤٨ عدد يوليو ١٩٥٤م ٠

[٢] الاتجــاه الإســلامى فــى ديــوان [المســافر فــى ســنبلات الــزمن] الدكتور/صابر عبدالدايم يونس :

لم يخرج د. صابر عبدالدايم من عباءته الدينيــة منــذ طفولتــه المبكرة التى التحق فيها بالأزهر طالبا ، وخلال مسيرة حياتــه التــى انتقل فيها من مرحلة إلى أخرى ٠

وربما كان ديوانه [المسافر فى سنبلات الزمن] واحدا من دواوينه المتميزة شكلا ومضمونا مما يجعله جديرا بالعديــد مــن الدراســات النقدية، حتى لو كانت بعض قصائده يعود زمانها إلى ما يقــرب مــن ثلاثين عاما ٠

وقد تميز هذا الديوان بتعدد الأصوات فيه بين الشــعر التقليــدى والشعر الحر، وتنوع البحور فى اللونين، أى أن الأصوات الموســيقية ذوات أنغام متعددة بين البيت المقفى ، والتفعيلة المكررة فــى الســطر الشعرى ، أما المضمون فيأتى اتساقا مع الرؤية التى يمثلهــا عصــر الشباب بما يحمل من التزام خلقى تفرضه طبيعة النشأة التى عاشــها ، وعبر عنها والتزم بها ٠

وتتمحور الرؤية الدينية فى مجموعة من الأبعاد التى تعبر عــن تكوينه الدينى ، وطبيعته السمحة ، ولغته النابضة ، والتزامه بقضــايا وطنه ، وتتميز تجربته بصدق العاطفة، وعمــق الرؤيــة ، وتلاحــم الصور الخيالية المستمدة من التراث الإسلامى، ومن الطبيعة الزاخرة بآيات الله فى الأرض والسماء ٠

ولقد أثيرت حول هذا الديوان ضجة نقدية لما في بعض قصـــائده من اقتباس وتضمين من القرآن الكريم لم يتعرض له أحد منـــذ طبـــع الديوان، ونعتقد أن لذلك أسبابا كثيرة؛ لإثارة هذا الأمـــر فـــي الوقـــت الراهن ، ربما للحملة التي أثيرت عن محاولة بعـــض أهـــل الطـــرب التغني بأشعار فيها آيات من القرآن الكريم ، وربما أيضا للإقبال الزائد على القرآن الكريم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عـــام ٢٠٠١م حتى تعمد بعض الساسة الغربيين الإساءة إلى الإسلام، والاعتذار بعـــد ذلك عما قالوه ، إلى غير ذلك مما سمعه المسلمون ، وغضبوا منـــه ، وحزنوا عليه٠

ومعنى الاقتباس: أن يأخذ الشاعر أو غيره كلمـــات أو عبـــارات قرآنية مع التغيير فيه، فإن ضمها إلى كلامه دون تغيير فيهـــا ســـمي تضمينا وإن أخذها بهذه الطريقة ، وأشار إلى مصدرها ســـمي ذلـــك استشهادا ، ولا شئ فيه ، وقد مارس الأخذ اقتباسا وتضـــمينا شـــعراء كثيرون مثل أبي تمام ، ومن بعض الرجال المشـــهورين فـــي الأدب والدين والتصوف من القدماء والمحدثين، لكن الـــبعض يـــرفض هـــذا الاتجاه ، ويتخوف من خطورة الاستعانة بالجملة القرآنية في الشـــعر، بدافع الحرص الشديد على النص القرآني ، حيث يضعه الشاعر داخل أقواس تفصله عن النص الأدبي، ثم يأتي من يقدر الأمـــر بطريقتـــه ، فتسقط الفواصل، ويتداخل النص القرآني مع الشعر ، وهذا لا يجـــوز في حق الذكر الحكيم ٠

ويتساءل البعض فى غمرة هذه الضجة .. ماذا لو دخل الشعر بما فيه من اقتباس قرآنى ساحة الغناء؟ وتخضع القضية لوجهتى نظر بين الإباحة والمنع، لكن الثابت أن الدكتور "صابر" لا يمانع فى الاقتباس والتضمين من القرآن سيرا على طريقة الكثيرين خاصة فى ديوانه الذى بين أيدينا، كما فى قصائده: إيقاع الزمن القادم — إشراقات فى سفر التكوين والنبوؤة — الفزع الأكبر ، ولكنه عدل عن ذلك فى دواوينه التالية مما جعل ديوانه (المسافر فى سنبلات الزمن) متميزا فى لغته وسائر تشكيلاته الأسلوبية وصوره وأخيلته ومعانيه الكلية وأفكاره الجزئية . وقد تجلت ملامح التوجه الإسلامى فى هذا الديوان فى عدة خصائص منها :

١- الاستعانة بالنص القرآنى جملة ولفظا ومعنى :

ففى قصيدته (الفزع الأكبر) يبدؤها بمطلع مكون من ستة أبيات من أول (سورة الطور) وذكر أن هذا الاختيار له دلالة فنية وربما كانت له دلالة موضوعية وهى اجتياح إسرائيل لأرض لبنان قال :

(والطور)[1] ٠

(وكتاب مسطور) ٠

(والشعب المقهور) ٠

(والقدس المشطور)

(والأقصى المهجور)

---

(١) سورة الطور أية ١ ، ٢ ٠

قد (جاء الأمر وفار التنور)
والعالم يغرق فى الديجور
والسلم يفتش عن ساعده المبتور
والشمس تجمع كل حقائبها
ترحل عن زمن يخنق أصداء النور
يبحث عن وجه آخر للعالم
... لا يتوارى خلف قناع شرور
فسماوات العصر انشقت
والأرض أراها قد مدت
(وألقت ما فيها وتخلت) [١] .

وقد وضح مقدار ما أخذه الدكتور / صابر عبدالدايم من القـرآن الكريم اقتباسا وتضمينا[٢] ولعل دلالات النص واضحة فى رسم المعاناة العربية والإسلامية للمشكلة الفلسطينية التى لا زالت نيرانهـا مشـتعلة حتى الآن.

وتتلاحم عناصر التجربة فى القصيدة المتجردة من القافية حيـث تتوالى التفعيلات فى دفقات شعورية ، وعاطفة متأججة تعبيـرا عـن المضمون والرؤية الشاملة للواقع المعاش ، ولـذلك تخلـت القصـيدة الجديدة عن الأغراض القديمة، وصارت ذات إيقاعات سريعة متدفقـة

(١) سورة الانشقاق آية ٤ .
(٢) .. النص الشعرى من ديوان المسافر فى سنبلات الزمن ص ٢٨ ص٤٠ .

بما فيها من إيحاءات ورموز، وصور حية نابضة، تتجاوب مع بحـر المتدارك ووزن (فاعلن) الذى يأخذ قوالب وأنغاما متعددة.

وعندما يستمد النص الشعرى إيحاءاته من القرآن أو من كتـاب دينى أو تاريخى يصبح اقتطاع جزء من القصيدة غير يسير فى ظـل الإيماء بوحدة النص.

وكانت قصائد هذا الديوان من نتاج البواكير الشعرية للـدكتور/ صابر، أو هى القطفة الأولى من العسل، وقد قلت له: إن هذه التجارب تختلف فى أمور كثيرة عما أفرزته سنوات العمـر الأخـرى شـكلا ومضمونا ، وربما كانت إقامته فى مكة سنوات طويلة ــ بعـد زمـن القصائد ــ ومعاناته من غربة النفس والمكان وهموم الأمة الإسـلامية والعربية وانكساراتها المخزية جعل الاتجاه الإسلامى يحتويـه ويمـلأ وجدانه وكل حياته، ويظهر جليا فى الأشعار التى قيلت بعد ذلك .

ومن أشعار (المسافر ...) إشراقات من سفر التكوين والنبـوءة، معلنة عن قمة إحساسه بالمأساة ، قال:

موسى فى قلب الظلمة يعدو
فالنار ــ الوعد ــ نجاة وسماء
كانت فى البدء ، ولا زالت فى القلب
... تصد وتحرق كل الأقذاء
والنار تنادى :
(اخلع نعليك)

إنك فى أقدس وادى
وافتح عينيك
واشهد فى أعماقى خضرة أعوادى
يتلاشى موسى فى الكل ، ويرحل فى عين الأشياء[١].

٢ - استدعاؤه للشخصيات الإسلامية :

جاء استدعاء الشاعر للشخصيات الإسلامية والتاريخية القديمة فى بعض القصائد بما يتواكب مع توجهه الإسلامى ، وانفعاله مع العديد من المواقف فى مسيرة الدعوة الإسلامية ، فحياة (أسماء بنت أبى بكر) عامرة بالإيمان والثقة والتحدى، بدءا من حادث الهجرة النبوية بما فيه من مخاطر، ومشاق وإيمان وعطاء إلى تحدى (الحجاج ابن يوسف) فى أزمة (عبدالله بن الزبير)٠

وفى قصيدة (أسماء: الثورة والعطاء والتحدى) يفتح الشاعر ملف التاريخ الإسلامى، وصحائف السيرة النبوية، متحدثا عن لقاء الرسول وصاحبه فى الهجرة حتى يصل إلى مأساة ابن الزبير مع الحجاج ، ونؤكد أن الشاعر ليس مؤرخا ، ولم يكن الشعر فى يوم مصدرا وحيدا للتاريخ، لكن المواقف التى التقطها ، وانفعل بها ، وغلت فيها مراجل ثورته ، وتأججت عاطفته ثم استجاب معها لنداء العطاء والثورة والرفض فى حياة أسماء ، فقال على لسانها ولسان ابنها عبدالله بن الزبير :

---

(١) المسافر فى سنبلات الزمن ص ١٥ ٠

ـ يا عبدالله
لا حاكم إلا الله
لا تعط السارق بستانك
لا تترك فى وجه الإعصار الأهوج أغصانك
صغ من أوتار هداك رماحا تفنى من يخنق ألحانك
واجعل من نبض يقينك صاعقة
تنقض على من يغتال اللحظة إيمانك
ـ يا أماه : لا أخشى أن أستشهد أن أتلاشى فى نور الله
أن أنفق آمالى وشبابى فى استثمار طريق الله
أن أغدو معبر أمن ونجاة
لضمير صفاء الألم العذب ، ولم يتحول عن وجه الله
لكن يا أماه: ما أقسى تمثيل الحجاج إذا عانقت الخلد ..
وحلقت رضيا فى ملكوت الله(١)

وينتقل من الثورة والرفض إلى مشـاهد مـن ملحمـة العشـق والبطولة فى حديثه عن (محمد بن القاسم الثقفى) الذى فتح الهنـد فـى عهد الوليد بن عبدالملك فى قصيدة تتلو تلك ، وكأنه أراد الموازنة بين ثقفى هنا هو (ابن القاسم) وثقفى هنـاك هـو (الحجـاج) ، وتتفـق القصيدتان فى النغمة الموسيقية، واللفظة الموحية، والتصوير النـابض والاستدعاء للشخصيات الإسلامية.

(١) المسافر فى سنبلات الزمن ص ٢٩ .

٢ـ عشق الوطن والتعبير عن قضاياه :

عاش الشاعر طفولته وصباه وجزءا من شبابه فى أحضان الريف فسمع ناى الحقول، ونوح السواقى، وأحب الأرض، وغنــى للأبطــال الذين دافعوا عنه ، وتصدوا للمغيرين عليه ، والطامعين فيه.

وقد عاش سنوات الانكسار وحرب الاســتنزاف، والرغبــة فــى الخلاص، وعاد لقريته ، وسعى لحمل الفأس من والده، ولكــن مكــان الشباب على خط النار في زمن الحماية والدفاع .

وقال : الفأس من عظامى : والثرى لحمى
مكانك فى خطوط الناس تحرق غابة الظلم
وتنزع من قلوب الناس صبار الأسى المدمى
فقلبى من لهيب الحزن صار كقطعة الفحم[1]

وتتوالى قصائد الرفض للواقع المهان ، وفــى غمــرة الأحــزان يخطو إلى الأمام، حاملا عمره بين يديه ، ورافعا سلاحه ضد الأعداء، وهتف بشرعه فى ربوع وطنه بصوت عال مدو فى قصــائده: (لــن يموت فى عيونها النهار) و(كلمات على طريق الحرية) و(مــن فــوق حبل المشنقة) ويتحدث بصوت أحمد عرابى فى قصيدة (المنفى داخــل الوطن)، وتتأجج الثورة فى أعماقه وهو يزأر فــى قصــيدته (الكلمــة والسيف) و(نقوش على جدار الصحف).

---

(١) السابق ص ٦٠ ، ٦١ .

وقد هتف الشاعر بهذه القصائد الثورية ما بين عام ١٩٧٠م وعام ١٩٧٣م تلك السنوات العجاف بما فيها من ضيق ومعاناة ورغبة في الخلاص من الأزمة وتحرير الوطن ، تلك الحقبة التى لا يشعر بها إلا من عاشها، واكتوى بنارها ، والقارئ لتلك القصائد يشعر أن الواقع كان مرا والألم كان شديدا، فالقصائد بلاغات ثورية، ولهيب مستعر فى الصدور ٠

٤ـ رثاء الوالد :

بكى الشاعر والده فى قصيدتين بهذا الديوان ، الأولى بعنوان (العرس والدموع) وهى من الشعر التقليدى الموزون المقفى، والثانية هى (حبيبنا الوحيد) وموسيقاها من الشعر الحر ، ونعتقد أن أوزان الشعر التقليدى هى الأنسب فى غرض قديم كالرثاء، قال فى الأولى :

لسانى معقود ... وفكرى مبعثر ∴ وقلبى بالشكوى يئن ويزفر
وروحى بآفاق الأسى قد تطايرت ∴ كأشلاء آمال على النفس تخطر
وذاب كيانى فى جحيم تألمى ∴ فما عدت إلا بالنوائب أشعر
فكف المنايا قد أطاحت بمهجتى ∴ وموطن آمالى الذى منه أغمر[1]

وقد بلغت أبياتها خمسة وستين، فهى طويلة بالمقياس الحديث للشعر الذى لم يعد يطول فيه صوت الشاعر إلى هذا الحد باستثناء القليل من القصائد ، لعدد محدود من الشعراء ٠

(١) المسافر فى سنبلات الزمن ص ٨٧ ٠

وتتميز القصيدة بصدق العاطفة ، والإحاطة بالعديد من المعـانى التى يحسها ويشعر بها الإنسان تجاه والده ، خاصة أن الوفاة جـاءت فى أعقاب احتفال الأسرة بحفل عرس مما جعل الخطب فادحـا إذ لـم يكن الشاعر وأخوه فى حالة ينقلبون معها من بهجة الأفراح إلى أحزان الفراق ٠

ويلاحظ أن هذا النمط التقليدى فى التعبير عن الأحزان لم تغيـر فيه السنون شيئا ذا بال، حتى من كتب عنها جاء حديثه تقليديا خالصـا على طريقة القدماء فى وصف المراثى، قال أحد الباحثين :

" والقصيدة تكاد تكون جسما واحدا، متناسق الأعضـاء، قـوى البنية، تسير فى بناء فنى محكم وتناسق وترابط، فالمعانى مناسبة، ليس فيها طفرة من معنى إلى معنى ، أو شعور بفجوة بين البيت وتاليه، كما أن الشاعر قد أحاط بالمعنى المراد من غير زيادة ولا نقصان[1]٠

ويأتى الإعجاب بالقصيدة من واقع الميـول والاتجاهـات التـى نهواها من قوة فى الأداء والبناء، وهـدوء الموسـيقى التـى تناسـب الموضوع ٠

أما القصيدة الثانية فزاخرة بالصور والتشـبيهات المتتاليـة، وإن جاء بعضها غير ملائم لفداحة الخطب كقوله فى البداية :

أتبتر الرحلة يا أبى بسيف هذه النهاية ؟

---

(١) فن الرثاء بين الرجال والنساء فى العصر الحديث د. طه عبدالحميـد زيـد صـ ١٨٦ ٠

وهل هى النهاية التى تعود منها لساحة البداية ..

وقوله فى المقطع الثانى :

كنت إشارة المرور

لساحة الآمال يا حبيبنا الوحيد

وأنت فى عيوننا فى كل لحظة جديد

فهذه القصيدة الجديدة لم ترق إلى درجة السابقة التى كانت تقليدية خالصة ، لذلك نقرر أن الزمن ليس هو الفيصل فى تقديم نص على آخر، وكأن هذه القصيدة القديمة ما زالت حية متجددة فى العصر الحديث .

[٣] الاتجاه الإسلامى فى شعر لطفى جادو :

يوم أن قابلت الأستاذ "لطفى جادو" رأيت فيه صورة والده الأزهرى الدكتور/ إبراهيم جادو الذى كان أستاذا لغويا ، وعالما عبقريا ، استفدت من علمه، وتأدبت بأدبه، وسرنى أن ينمو زرعه ، ويثمر زهره شاعرا مبدعا هو الأستاذ/ لطفى جادو الذى ودعناه ، وبكيناه مع أحبابه ، وعارفى فضله ، ورواد شعره فى يوم الخميس التاسع من مارس عام ألفين فى قريته كفر الحمام بمركز الزقازيق .

فالأستاذ لطفى جادو أزهرى ابن أزهرى، ولغوى ابن لغوى ، حفظ القرآن الكريم فى طفولته المبكرة ، وتخرج من كلية اللغة العربية، وعاش الواقع ، وتجاوب معه ، وعبر عنه من أيام حرب

فلسطين وثورة يوليو ، وسائر أيام الـوطن بمـا فيهـا مـن هـزائم وانتصارات .

وشاعت إرادة الله أن يجمع شعره بنفسـه ، وأن يظهـر ديوانـه الأول مطبوعا بعنوان (ويبقى النداء) إيذانا وإعلانا ببقاء صوت الحق ، إذ ليس فى الديوان قصيدة بهذا العنوان كما يفعل الشعراء المحدثون فى تسمية كل ديوان بعنوان قصيدة فيه ، وقصائده كما فـى المقدمـة : " تدور حول الهم الذاتي والوطني والقومي ، بل تتسع للهم الإسلامى فى قالب تقليدى يذكرك بديباجة الشعر العباسى شكلا ومحتوى ، عصـرى الموضوع لا التناول[1] .

وتتجلى أصالته ومذهبه الشعرى فى قصيدة بعنوان (مـن وحـى البردة) ابتدأ بها الديوان قائلا:

سرى بى الحب فوق المزن والـديم	∴	وطرت بالشوق نحو البان والعلم
وما رأيت سوى الذكرى تـؤرقنى	∴	ذكرى الأحبة فى واد بذى سلم

ثم قال :

يا سيدى يا رسول الله أنـت لنـا	∴	فيض من النور والإحسان والكرم
أتـى بـك الله للـدنيا لتنقـذها	∴	من ظلمة اليأس والإشراك والندم
أوحى لـك الله قرآنـا فعـز بـه	∴	قوم ، وساروا إلى العلياء والقمم
يا صاحب الدعوة الكبرى بعثت بها	∴	قوما من الموت والنسيان والعدم
لولاك ما بعثوا يوما وما عرفوا	∴	طريقهم لحياة المجد والشمم[2]

---

(١) ويبقى النداء ص ٢ .
(٢) الديوان ص ٣ .

لقد حظى هذا الراحل الكريم بلقاء الشاعر "محمد العلائى" ، فاستفاد منه ، وعمل بتوجيهاته ، كما أن نشأته الدينية وثقافته الأزهرية ، وموهبته الشعرية جعلت منه نموذجا حديثا لمن يلتزمون بعمود الشعر العربى .

وله قصائد تتجلى فيها الروح الإسلامية صاغها الرجل بأسلوبه التقليدى، ولغته الفصحى، وديباجته المشرقة ، وعاطفته الصادقة ، وتجربته الحية النابضة مثل قصائده: (من وحى الهمزية) و(مولد النور) و(اليتيم) و(من وحى الهجرة) و(سلوا قلبى) وهى قصائد يتضح فيها حب الشاعر لرسول الله ﷺ .

ثم انطلق بيانه فى مجموعة من القصائد عن حب مصر وأعياد سيناء وعن الشرقية، كما تجلى حبه لوطنه فى مجموعة من القصائد عن رجال مصر العظام الذين عرفوا بوطنيتهم المخلصة وإيمانهم العميق .

ثم صدر الديوان الثانى بعنوان (على شاطئ الأيام) ابتدأه بمجموعة من القصائد الدينية التى تشكل ملحمة إسلامية تذكرنا بإليادة أحمد محرم ، لكن الأستاذ لطفى جادو ــ رحمه الله ــ لا يتوقف عند هذه الأحداث التاريخية فى حياة الرسول ﷺ ، ولكنه يبكى ويبكينا على الواقع المر المعاش، فتحدث عن مأساة الأفغان قائلا :

ماذا دهاكم أيها الأفغان ∴ وبأى ذنب يقتل الإخوان

كنتم جميعا ثم صرتم فرقة ∴ قد ضمكم لقطيعة الشيطان

ويختم الشاعر هذا الديوان بقصيدة يرثى بها نفسه ، متحسرا على شبابه الذى انقضى ، وعلى أصحابه الذين انتهوا وغابوا، لقد كان بكاء الشاعر فى هذا الديوان طويلا ، وكأنه أحس بشمس حياته تـدنو مـن المغيب ، وأشعل نيران المأساة فى أعماقه ما كان يشهده فـى القـدس وكوسوفا ، وفى مواقع أخرى كانت تغلى وتلتهب بنيران الفتنة وأتـون النكبة ومأساة الانكسار ٠

[٤] محمد سالم السنهوتى فى شعره الوطنى :

لم يوجد من الشعراء من يقتصر فنه على غرض واحـد ، فـإذا تصفحت ديوانا لشاعر قديم أو حديث تراه يتحدث فـى فنـون شـتى وموضوعات متنوعة، وأن تصنيفه تحت لون أو اتجاه يكون بـالنظر إلى اللون الغالب فى شعره ، أو بالنظر إلى مرحلة من حياته اقتصـر فيها على ضروب معينة من الشعر دون سواها، باسـتثناء شـاعر أو أكثر بما لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ومن هؤلاء (عمـر بـن أبى ربيعة) الذى قال شعره كله فى الغزل فى حدود ما وصـلنا مـن شعره، و(محمد السنهوتى) شيخ شعراء الشرقية فى النصف الثـانى من القرن العشرين ، الذى عاش فى الإقليم ، ولهـج بلغتـه العربيـة الفصحى وحافظ عليها فى شعره التقليدى الرصين ٠

وقد ملأ حياته بالكلمة التى يقرؤها ، ويكتبها ، ويهتف بـه فـى محافل العلم وأندية الفكر ، وفى كل تجمع يرى فيـه تـأثيرا للكلمـة بزخمها ، وعبقها ، وقوة الحجة فيها ٠

وتلقيت منه ــ ذات مرة ــ مجموعة من القصائد ، منها واحدة صاخبة بعنوان (حديث مع البحر) فرأيت فيها السنهوتى بهامته العالية وقامته المشدودة ، وصوته الجهورى فتأكدت أن شعره قطعة منه يتماوجان معا بالثورة والاضطراب والانفعال أو بالسكينة والهدوء والوقار، قال :

يا صاحب البحر إن البحر أسرار ∴ تفجر الموج والأقدار تختار
قد جئت أنشد شعرى فى مباهجه ∴ فراعنى أن ماء البحر موار
هل عالم البحر مفتون كعالمنا ∴ به حروب وغارات وثوار
قلنا السلام وما كدنا نردده ∴ هنا على البر حتى هب إعصار

وكان عالم البحر محببا للشاعر، فتحدث عنه بصوت آخر ، وبالعنوان نفسه فى ديوان (شمس لا تموت)[1] وعلى نفس الوزن من بحر البسيط وبالقافية المطلقة التى تتواكب مع حركة الموج واندفاع المياه ، فالحديث عن البحر ، والاتجاه إليه بالمناجاة والسؤال يكشف عن اتساع عالمه، وضعف الإنسان أمامه .

إن "السنهوتى" الذى ودعناه يوم الخميس السابع والعشرين من مارس عام ألفين شق لنا طريقا نروح فيه ونغدو، ثم نعود إلى (امرئ القيس) عندما قال :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ∴ على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ∴ وأردف أعجازا وناء بكلكل

(١) الشمس لا تموت للسنهوتى ص ٢٢ .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـــى ∴ بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ذلك ما كان ينتاب "السنهوتى"، وهو يبحث عما ضاع من كرامـــة الأمة ليقع أسيرا لهمومه وأحزانه ، فكلنا نراه غاضبا كأنـــه إعصـــار ونصل فى طريقه إلى (حافظ إبراهيم) . واللغة العربية تنعى حظها بين قومها :

وسعت كتاب الله لفظا وغايـــة ∴ وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ∴ وتنسيق أسماء لمخترعـــات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ∴ فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

هكذا عاش "السنهوتى" صاخبا مع الواقع ، هادئا مع كل إشــراقة أمل يبعث معها بنسمة حانية إلى كل طفل يبتسم للحاضر والمستقبل.

وكانت الفصحى غاية له يسعى إليها ، ورسالة يحـــافظ عليهـــا، وكان التجديد فى شعره موجها فى الدرجة الأولى إلى النموذج التقليدى الذى قدم فيه قصص الأطفال فى شعر سهل جميل ، فكان واحدا مـــن الشعراء المعاصرين الذين جمعوا فى تجديدهم للنمـــوذج القـــديم بـــين الشكل والمضمون ولقد كتبت مقدمة لديوانه (الشمس لا تموت)، فســـعد بها وأثنى عليها ، فهو عندما يشدو للأطفال فإنما يشدو لوطنه، وعندما يتحدث إلى الشباب فلأنهم عدة الحاضر وأمل المستقبل، وهكذا تحـــول الشعر عنده إلى حب صادق للوطن والطبيعـــة، والإنســـان ، واللغـــة، والطيور الشادية التى يغنى لها فإنه يهيم بها حبا لأرضه ووطنه وكـــل آماله وطموحاته .

إن قصيدة (حديث مع البحر) من القصـــائد الصـــاخبة القويـــة كالقوة التى يراها الشاعر ممثلة فى مكونات الطبيعة التى هى جزء من

الوطن الذى يغنى له، ويشيد به، ويقبل عليه . والقصيدة متوسطة بـين الطول والقصر (ومن خلال النص الذى بين يدى) فهى ستة وعشرون بيتا، وتكرر فيه لفظ البحر إحدى عشرة مرة، ولا زلنا فى مصر نسمى النهر بحرا مما يتسع معه إطلاق هذا اللفظ علـى البحـار والأنهـار، والقصيدة من البحر البسيط (مستفعلن فاعلن أربع مرات)، وهو بحـر كثير الورود فى الشعر العربى القديم والحديث.

[٥] بدر بدير فى شعره الوطنى :

هتف الأستاذ "بدر بدير" حسن " بالشعر فى حدود العشرين مـن حياته بالنظر إلى ما أثبته فى عقب كل قصيدة بديوانـه (لـن يجـف البحر) وربما ضاع الكثير مما قاله قبل ذلك ، لأن تجربتـه الشـعرية التى قرأناها فى الديوان المذكور، وفى الثانى الذى طبع بعنوان (ألوان من الحب) تؤكد أصالة هذه التجربة وعمقها، وتوهج العاطفـة فيهـا، وهو شاعر رومانسى حالم، يغنى لنفسه ، ويغنى لوطنـه، وإذا كـان التيار الوجدانى سمة من سمات شعره، فإن الشعر الوطنى فى ديوانيـه المطبوعين لا يقل عنه صدقا وإخلاصا ومعاناة منذ بيانات ثورة يوليو وطموحاتها الكبيرة ، ويوم أن مات زعيمها كان الشاعر فـى غربـة قريبة بدولة (ليبيا) فتفجرت ينابيع الحزن عنده، وبكى على رمز الثورة الذى هوى وسقط شهيدا فى ميدان الصلح بين الفرقاء، وكتب الشـاعر قصيدته (لن يجف البحر) إعلانا بأن المسيرة مستمرة ، وبحر الوطن مليئ بالرجال الذين يزرعون الآمال فى القلوب. قال :

ذات يوم ونجوم الليل حـولى سـاهرة

تعبر الأفق وتحبو فى سـماء القـاهرة
وخطا الليل على الدرب حيارى عـاثرة

ذات يوم

بينمـا أزرع الأفـق بـذورا للأمـل
بينمـا أنثـر مـن حبـى ملايـين القبـل
حول درب فوقـه يحبـو وليـدى لـم يـزل
ذات يوم(١)

وينتقل الشاعر فى ثلاثيات تالية إلى البكاء مع شعبه عن الـزعيم الذى مات ، ويلاحظ أن الشاعر قد جدد فى الشكل الموسيقى القديم ، إذ لم يلتزم بالقافية فى سائر الأبيات، وإنما جعل كل ثلاثة أبيات تشـترك فى حرف روى ثم تتغير القافية مع حرف الروى فى الأبيات الثلاثـة التالية، وبعد كل ثلاثة أبيات يأتى بتفعيلة واحدة يختتم بها الثلاثية ٠

ويحمل الشاعر (بدر بدير) أشواقه وأحلامه إلى حيث يعيش مـع إخوانه فى ليبيا فرحة الجلاء عن الأرض العربية الليبية، ويعبر عـن فرحته بالنصر الجزائرى على الاستعمار الفرنسى، ثم يبكى فى يونيـة الحزين، وهكذا تبدو للقارئ صورة الوطن العربى الأكبر فـى رؤيـة الشاعر التى تجسدت فيها آلامه وأحزانه ، ولذلك فديوان (لن يجـف البحر) صورة صادقة لرؤية الشاعر لوطنه خلال أربعين سنة ٠

---

(١) لن يجف البحر صـ٤١ ٠

أما (ألوان من الحب) فلا يعبر عن الاتجاه الوطنى عند شاعرنا بمثل ما يعبر عنه ديوانه الأول ، سوى القصيدة التى يصرخ فيها إلـــى حماة القدس إذ يرثى فيها آماله وطموحاته، ويصرخ فى وجه كل مـــن يقدر على حمايتها ، وقصر فيها إلى أن آلت إلى حالها البائس الحزين. قال:

هم سلموك
قديسة تصلى
للحب والسلام
ورغم كل ما ترى
من جاحد وخائن
قديسة قديسة
صلاتها محبة
فى قبلة ... فى هيكل ... كنيسة
صلاتها دعاء
أن ترحم السماء
كل الذين يفتحون نافذة
للعدل والضياء
هم أمروا أن يسكتوا ... فسكتوا
هم أمروا أن ينطقوا ... فنطقوا
ما أقبح الكلام والسكوت

خير لمن يكون حاله كحالهم بأن يموت

ولعل القارئ قد لاحظ ما إنتاب الشاعر من غضب وضيق على زهرة المدائن ٠

ولقد استطاع الأستاذ "بدر" بمجموع شعره أن يحتل مكانا خاصا به بين شعراء الشرقية مميزا بسهولة ألفاظه، وفصاحتها ، وخفة أوزانه التي جدد فيها بما لم يخرج به عن النغمة الموزونة في شعر مقفى في سائر القصيدة أو في مجموعات منها أو شعر حر ذي تفعيلة مكررة ، وإن جاء ذلك في مقدار بسيط بديوانيه (لن يجف البحر) و(ألوان من الشعر)، ولذلك كان هذا التنوع في الشعر شكلا ومضمونا باعثا على إعادة القراءة والنقد لهذا الشعر الأصيل٠

[٦] الاتجاه الوجداني في شعر (محمد سليم بهلول) :

لا يقتصر الشعر الوجداني على الغزل أو النسيب بمفاهيم القدماء، وإنما تجاوز ذلك في العصر الحديث إلى الحديث عن الحب والطبيعة، والانطلاق إلى العالم الرحب الفسيح للحرية ، والحديث عن الماضي بكل ما فيه من ذكريات ممتعة أو مؤلمة في ضوء الإطار العام للمصطلح الذي عرض له وتحدث عنه الدكتور / عبدالقادر القط في كتابه القيم (الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر) ٠

وقد بدأت معالم هذا الاتجاه في التجلي مع حركة الإحياء والبعث للشعر العربي في أواخر القرن التاسع عشر (الميلادي) وهذا الاتجاه قريب في مضمونه من الرومانتيكية أو الرومانسية التي يعبر بها

الكثيرون نقلا أو تأثرا بالنقاد الأوربيين غير أن ثمة فروقا تفصل بين الاتجاه الوجدانى وما يقابله عند الأوروبيين، إذ يتجه مضمونهم إلى الحب والطبيعة ، بينما يتسع مدلول الوجدان إلى المعانى المذكورة، ويتجاوزها للدعوة إلى المثل الأخلاقية وإكبار الجمال ، والنفور من الدمامة فى مظاهر الحياة والسلوك[١] .

أما فيما يتصل بالشكل فقد اتجه الشعراء إلى التجديد فى القوالب الموسيقية التقليدية فابتدعوا الشعر المرسل، والشعر الحر، واستخدموا ألفاظا محملة بدلالات شعرية وجمالية إلى جوار الألفاظ التقليدية المتوازنة، واعتمدوا فى صورهم وأخيلتهم على كثير من التشبيهات المستقاة من الطبيعة الزاخرة بكل معانى الجمال ، وهكذا يبدو الوجدان شاملا لكثير من الدلالات التى تتجاوز المعانى السابقة اعتمادا على أن الوجدان هو منبت الشعر ، وحسب وجهة الشاعر عبدالرحمن شكرى الذى صدر الجزء الأول من ديوانه بهذا البيت :

ألا يا طائر الفردو ∴ س إن الشعر وجدان

وقد تفاعل الشاعر / محمد سليم بهلول[٢] مع كثير من هذه المعانى، وهو شاعر له نمط خاص لا يقلد فيه أحدا ، ولذلك فإنى أرى شعره قطعة منه ، وهو نبض حياته، وشريان روحه، وهمسة وجدانه

---

(١) من مقعد الناقد ــ على شلش ص ٦٤ .

(٢) شاعر معاصر من أبناء محافظة الشرقية ومن مواليد قرية الغار مركز الزقازيق .

فى رقة الكلمة ، وعذوبة الجملة وقصرها، وحسن تنسيقها، وفى شعره بعض الأنغام الصوتية الحانية على طريقة "نزار قبانى" ٠

وقد نظم على الأوزان التقليدية ، ولم يخرج على نظام السابقين فى التفعيلات الموسيقية ، لكن التجديد فى الشكل انصب على ما أسماه النقاد "الموسيقى الداخلية" التى تتمثل فى تقسيم البيت إلى مقاطع صوتية ذوات أنغام متناسقة . وقد عاش الشاعر تجربته بعاطفة صادقة، ومعايشة حقيقية واعتمد على التشبيه والاستعارة والجمل القصيرة ، وتظهر شخصيته من شعره فهو شاعر فنان وعاشق ولهان، يحب الحياة والطبيعة والجمال، ويكره الأنانية وعبادة الأشخاص. وفى ديوانه الأول (شواطئ الوجدان) نقرأ من قصيدة (بهلولية) بعنوان : [مولدى وحياتى] هذه الأبيات :

الحب يعنى مولدى وحياتى ∴ وأنا المحب أهيم بالنظرات

وأتيت ألتمس السعادة والمنى ∴ بتعانق النظرات والبسمات

فالوجد من فرط الهيام لهيبه ∴ حفر الضنى فى ملتقى صرخاتى

ما بال أشواقى وصوت زفيرها ∴ كالرعد والبركان والطلقات

وقال :

ولقد أتيت وأنت غاية مقصدى ∴ نبنى الحياة ونصعد الدرجات

ونذوق من ثغر المفاتن شهدها ∴ فيزول ما نلقاه من عقبات

جندت كل مشاعرى وعواطفى ∴ لتكون أعتابى إلى الخيرات

هذا فؤادى من نفــيس معــادن ∴ فلتفحصيه بــأكبر العدســات

هذى دمائى فاســألى حباتهــا ∴ ستقول عنك منابع القطــرات

هذا لسانى فى مــديحك ســابح ∴ بين النجوم يعطر الكلمــات(١)

والأبيات نموذج حى للشاعر الوجدانى الذى يحدث المرأة ويعشق الطبيعة، ويغنى للحياة، وقال فى قصيدة (لحظة ضعف) :

من ريفنا، من مهد كل جمــال ∴ وفضيلة من سالف الأجيــال

الماء يجرى فى الجداول فضــة ∴ يغرى الحسان بسلسل وزلال

عند النهير ، وبعد مغرب شمسنا ∴ ذهب الأصيل بروعة الآصال

أتت الصبايا والميــاه مرادهــا ∴ وعلى الوجوه براءة الأطفال (٢)

وذكر الشاعر القصة التى أحسن خاتمتها ، جاعلا مــن الشــعر أنشودة للجمال، وسبيلا للإثارة والانتظار حتى لحظــة التنــوير التــى تنفرج فيها الأزمة كما فى الأعمال القصصية والدراميــة فــالمتلقى لا يكتفى بجمال الشعر ، ولكنه متشوق للأحداث ولحظة النهاية ٠

ويتجه الشاعر مثل الرومانسيين إلى الطبيعة فيغنى لهــا، ويقبــل عليها فى هذه القصيدة التى تمثل الشعر الوجدانى بخصائصه الفنيــة، وهى بعنوان (الشمعة) قال:

وجــاء المــاء وراح الضــياء ∴ يلــم الشــتات ويســتعجل

وعــم الظــلام وجــاء الغــلام ∴ بشــمع أضــاء ويسترســل

(١) شواطئ الوجدان ص ٤٨ ٠

(٢) الديوان ص ٥٦ ٠

وضوء الشموع كعزف الضلوع ∴ يــرد الهـــواء ويســـتقبل
وماء الغدير وعـــزف الخريـــر ∴ بعطـــر النســيم لنـــا يحمـــل
وشدو الطيور ، وما فى الصدور ∴ يقول الجمال هنـــا يرفُـــلُ(١)

وتتواصل رحلة الشاعر مع الاتجاه الوجدانى فى ديوانـــه الثـــانى (شموس الشرق)، وتصافحنا مجموعة من القصائد التـــى تمثـــل هـــذا الاتجاه مثل (العمر يبدأ) و(أحلى خبر) و(فى المكتبة) و(مسكن للحب) و(أنيسة قلبى) و(دماء تتحجر) (٢).

ويتحدث فى شعره عن حياة الحب وأيام الأنس ، وليالى الفـــرح والسرور ويحلم باللقاء، ويغنى للطبيعة الساحرة، ويقول فـــى قصـــيدة (أنيسة قلبى):

أحب الجمـــال إلـــى المنتهـــى ∴ وأعشق فى الحسن عينَ المَهَا
وأهـــوى الزهـــور بألوانهـــا ∴ وسحر الثمار على غصـــنها
وأهوى العزوبـــة فـــى نيلهـــا ∴ ورمل الشواطئ فى صـــيفها
وشـــمس الأصـــيل بأطيافهـــا ∴ ونسمة صيف حنـــا صـــدرها
وليـــل الصـــفاء وســـماره ∴ وفلك الأحبـــة فـــى نيلهـــا(٣)

ومع أن الشاعر تحدث عن مصر إلا أنه خاطبها بلسان العاشـــق المتصوف حيث نشهد فى هذا المقطع ألفاظ الجمال، والعشق ، وعـــين

---

(١) الديوان ص ٦٨ .
(٢) شموس الشرق ص ٦ ، ص ٢١ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٢ .
(٣) شموس الشرق ص ٦٦ .

المها ، والزهور، والثمار، والغصن ، والنيل، ورمل الشواطئ، وشمس الأصيل ، ونسمة الصيف، وليل الصفاء ، وغيرها .

إن أهم ما يميز شعر الأستاذ "محمد سليم بهلـول" هـو رشـاقة ألفاظه وروعة موسيقاه ، وحواراته القصصية وحفاظـه علـى لغتـه الفصحى، وتجديده لأدواته الفنية ومضامينه الشعرية .

[٧] الجانب الوجدانى فى شعر (محمد سليم الدسوقى) :

ليس لمحمد سليم الدسوقى فن شعرى يتميز به على سـواه مـن الفنون والأغراض ، فقد نظم فى موضوعات شتى فكتب فى النـواحى الدينية والوطنية والاجتماعية ، وقدم العديد من القصائد فى الوجدانيات والحب والجمال.

ونحن إذ نعرض فى إيجاز لملامح الرؤية والتشكيل فـى نتاجـه الشعرى فإننا نلحظ أنه التقى مع وجدانياته فى سائر شعره، ولم يسكت عن هذا الجانب الذى ربما يرى البعض الحديث عنه وإثباته بعد تقـدم العمر نوعا من الكشف لما ينبغى ستره وكتمانه ، وليس ذلك صحيحا، وإنما الحياة كلها سباحة فى بحار من العواطف التى يجيد البعض العوم فيها، ويخفق الآخرون فلا يصلون إلى شواطئ الأمان .

وقد نشر الرجل ثلاثة دواوين دفعة واحدة وهى: (صلوات على زهرة الصبا) ، (طقوس الليلة الممتدة) ، (الحب فى زمن الرمادة) وقدم ألوانا من الفن الشعرى التى يحتاج كل فن فيها إلى تحليل وشرح وبيان ، ففى ديوانه الأول تتجلى الروح الوطنية التى يغني بها لمصـر

وللأمة العربية شرقا وغربا، وجمع فى هذا الديوان كثيرا مما قاله عشقا لوطنه، وحبا لدينه وإقبالا على أهله ومجتمعه ، وهذه قصيدة هتف فيها بحب وطنه الكبير ، وهى أنشودة تغنى بها أيام أن كان مبعوثا لليمن ، وهى زاخرة بالعاطفة الصادقة، وإن كانت تشكيلاتها الأسلوبية ليست فى مستوى مضمونها الدينى والوطنى، قال:

كل حبى للوطن ∴ ليس فى قلبى وثن

صيحتى أخت زمانى ∴ ويدى فوق الزمن

اصدقوا الفجر آبائى ∴ تشهدوا رجع إبائى

أدبر الجهل وولى ∴ فلتعش عصر الفضاء

والبيتان الأول والثانى يكرران فى نهاية كل بيتين آخرين بحرف روى مختلف تلوينا لنغمات الأنشودة التى تؤدى بمجموعة (جوقة) حسب طبقات الأصوات والألحان٠

ونقرأ فى الديوان الثانى بعض القصائد التى تظهر فيها مقدرة (الدسوقى) على التجديد فى الشكل والمضمون ، ففى قصيدة يتحدث عن بعض هموم وطنه من خلال قريته التى سرى الدم فى شريان أبنائها، وهى ذات أبعاد اجتماعية ووطنية عميقة، يقول :

والراحلون بقريتى يتساءلون

عن القطار

عن المحطة

عن بقايا تنتحر

راحت طواغيت السواقى
والرياح الهوج فى عمر المآقى
سكرى تدغدغ لحنها المجروح
يجرشه القطار بلا انتظار
فى محطات الرقيق
الباحثين عن الدقيق

والقصيدة واحدة من تجليات الروح الوطنيـــة. وقـــد جـــدد فـــى منظومة الشعر التقليدى، إذ تخلى كثيرا عن القافيـــة، ملتزمـــا بوحـــدة التفعيلة، ووضحت العاطفة صادقة وعميقة.

ويبالغ الأستاذ (الدسوقى) فى تشكيلاته اللغوية مما يخـــرج فـــى بعض القصائد عن سمت المجددين إلى دائرة المتكلفين . واقـــرأ لـــه طقوس الليلة الممتدة[1] ثم اقرأ له مجموعة من القصائد الوجدانية التى تعبر عن هذا الجانب فى شعره مثل (إلى فتاة) و(الرحيل فـــى زمـــن القمر) و(ليلة عرس) .

وفى ديوانه الثالث (الحب فى زمن الرمادة) يقدم قصيدة بالعنوان المذكور يبدى فيها يأسا وألما على حب مضى فى زمن قديم ، وهـــذه مقطوعة منها :

---

(١) طقوس الليلة الممتدة ص ٦٢ .

فأراهن أن تبتاع الحب

فتاتي ..

تأسره ..

تطرحه فى قلب السوق

يقلبه الدلال

يساوم فيه السوقة

والنخاسين

وتجار الكلمات

ويساوم فيه الدلالات

يعبق فى قلب الأشواق

عبير الحب الأبيض

قربان الفتيات

ويبدو أن الشاعر قد حشد فى الديوان الأول عذابات الضـــمير ، واستكثر على نفسه أن يتلو شعرا فيه سعدى ورقية وزينـــب وتحيـــة ، فلما انداح الحرج رأيناه يقدم أمثلة من دفتر عشقه وقصة غرامه مـــع محبوبته الواقع والرمز فى شعر متجدد فى الصياغة والمحتوى.

وأخيرا :

تزخر محافظة الشرقية بالعديد من الأدباء والنقاد فـــى العصـــر الحديث والمعاصر ، فلا زال لدينا الكثير الذى نرغب فى البوح به عن أدباء هذا الإقليم خاصة ممن لم تعرفهم الساحة، ولم يأخذوا حقهم مـــن الكتابة والنقد والتنظير ، لا فى الشعر فحســب وإنمـــا فـــى القصـــة

والرواية، وهذا جانب يحتاج لمزيد من البحث والدرس، أما ساحة النقد والنقاد فعامرة بالشيوخ الكبار الذين تحدث الناس عنهم ، ولكنهم مع ذلك يحتاجون لكتابة أخرى تبرز الجوانب التى لم يعطها الناس حقها من الدراسة والبحث، وعلى العموم فالحركة لم تتوقف، والحياة مستمرة، سواء كتبنا عنهم، أو كتب عنهم الآخرون ، والحمد لله أولا وأخيرا ٠

مصطفى صادق الرافعى
وتجربته الإنسانية فى الفلسفة والحب والجمال

لقد عرف العالم العربى فى النصف الأول من القــرن العشــرين العالم والأديب والمفكر الكبير مصطفى صادق الرافعى بآرائه الحــرة، ومبادئه الجريئة، ودعوته إلى إحياء الثقافة العربية الأصــيلة، والــذى كشف ــ رحمه الله ــ عن وجوه من البيــان والإعجــاز فــى كتبــه المطبوعة، وأشعاره المتداولة، ومقالاته المتعددة فى الحــب والفلســفة والجمال، والتى لا زالت محل تقدير وإعجاب عند الكثيرين .

ومما قاله عنه الزعيم مصطفى كامل : " وسيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالــب مــن البيان".

وقد ولد الرافعى عام ألف وثمانمائة وثمانين فى منزل جده لأمــه فى بهتيم بالقليوبية، ثم عاد إلى موطن الأسرة فى طنطا، وحصل على الابتدائية ، ومال إلى القراءة الحرة إلى أن أصيب بالصمم ، فــانقطع عن التعليم، وبدأ فى كتابة الشعر ، وتنقل مع أسرته بين عدة مدن إلى أن عاد إلى طنطا، واستقر بها، وانصرف إلى التأليف والكتابة حتــى وفاته عام سبعة وثلاثين وتسعمائة وألف .

وكان من أبرز الرواد لصالون أديبة مصر والشام (مى زيــادة) ودخل فى معارك أدبية وفكرية ضارية مع الدكتور طه حسين حــول كتابه (فى الشعر الجاهلى)، ومع الأستاذ عباس العقاد حــول ديوانــه

(وحى الأربعين) ومع الأستاذ عبدالله عفيفى فى مديحه للملك ، واشتعلت تلك المعارك وغيرها فى ميادين الصحافة والفكر، وتحولت إلى نار حامية غذاها الرافعى بعاطفة قوية ، وأسلوب فريد، حيث كان يجهر بقوله : "إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى ، فليسمعوا منى"٠

كان الرافعى ممن يحرصون على الجمال والكمال، ويوثقون العلاقة بين الدين والحب، ومن رأيه أن الكمال الإنسانى يتحقق فى ثلاثة: المبدأ الشريف للنفس، والفكر السامى للعقل ، والحب الطاهر للقلب، ومما قاله عن الحب والفضيلة: "على أنه لا منافرة بين الحب والفضيلة فى رأيي ، فإن أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن لا يكون إلا فى النفس الفاضلة المتورعة عن مفارقة الإثم ، وهنا يتحول الحب إلى ملكة سامية فى إدراك معانى الجمال يرتفع بالآدمية إلى الملائكية؛ ليلتقي النور فنا بعد فن، والفرح معنى بعد معنى، والحزن السماوى فضيلة بعد فضيلة"٠

ونشر الرافعى فى فلسفة الحب والعشق والجمال ثلاثة كتب فريدة فى موضوعها وهى : رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، أما رسائل الأحزان فهى كتب متبادلة بينه وبين نفسه، حيث جرد منها شخصا آخر يتحدث إليه، وكلاهما يرد على الآخر ٠

وقد أحس انصراف (محبوبته) عنه، فابتعد عنها بشخصه، وفكر فى روحها، فاستوحاها، وتحول عن الحب والفكر إلى ضجر وضيق ، ومعاناة، وقال فى مقدمتها :

" كان لى صديق خلطته بنفسى زمنا طويلا، وكنت أعرفه معرفة الرأى كأنه شيئ فى عقلى، ومعرفة القلب كأنه شيئ فى دمى . ثم وقع فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسينى، وطار على وجهه حتى غاب عن بصرى، والتفت عليه مذاهبه فما يقع إلى من ناحيته خير، وامتـد بينى وبينه حول كامل خلا من شخصه، وامتلأ من الفكر فيـه، كأنـه العام الأول من تاريخ حفرة بين القبور العزيزة التى لا تنسى"(١).

وهذه الرسائل من إيحاء (مى) وموجهة إليها؛ تعبيرا عن حبه لها من خلال هذا النمط الفريد فى الأدب العربى الحديث ، وكتبهـا فـى ثمانية وعشرين يوما(٢)؛ لتكون أول ما بينه وبين محبوبته من رسـائل الحب، لا لتكون كتابا يقرؤه الناس، وإنما ليكون بين يـدى صـاحبته تطلع عليه، وتعرف منه بعض ما بداخل هذا الرجل الذى احتار الناس فيه، حيث كانوا يتهافتون على شعره ونثـره، وهـو منشـغل عـنهم بتصوير ما فى أعماق قلبه، ومكنون فكره .

وماذا بعد توقف حديثه بهذه الرسائل التى كتبها إلى نفسه، وتكون هى النفس التى يخاطبها يقول:

" ومتى انقطع هذا المدد المتلاحق من كتبى فـاجمع الرسـائل ، وقدم لها كلمة بقلمك ، ثم اطبعها وسمها (رسائل الأحزان) إنها كانـت عواطف ثارت وقتا ما ليحدث منها تاريخ، وسكنت بعد ذلـك ليحـدث منها شعر وكتابة. فإن نجتمع بعد نظرنا فيها معـا، وقرأتهـا عينـاك

---

(١) رسائل الأحزان صـ٥ دار الكتاب العربى.

(٢) من ٢١ يناير سنة ١٩٢٤م إلى ١٧ فبراير ١٩٢٤م.

لقلبى، وإن ارتاح الله لى برحمته رفت عليها روحى فاسمع صوتك فى الغيب يرسل لك هذه الروح تحية من أنغام قلبها الميت"[١].

ومجموع هذه الرسائل خمس عشـرة خـلا المقدمـة والـذكرى والخاتمة وصيغ بعضها شعرا ، ومعظمها نثرا، وما تبقى جـاء مـن اللونين معا.

وتعود بدايات هذه الرسائل إلى عام ١٩٢٣م عندما ذهب إلى ندوة (مى زيادة) فوجدها منصرفة إلى شاعر تحدثه ويحـدثها ، ولا توليـه اهتماما، فاحمر وجهه، وخرج منصرفا محميا بكبريائه ناسـيا حبـه؛ ليكون هذا هو الفراق الأخير الذى التجأ بعده إلى القلم يبثـه أحزانـه وشجونه فى هذه الرسائل الفريدة التى قال عنها:"هى"(رسائل الأحزان) لا لأنها من الحزن جاءت، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت، ثم لأن هـذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيا إلى قبر"[٢].

أما (السحاب الأحمر) فيقوم على سبب واحد هو فلسفة الـبغض وطيش الحب ، ولؤم المرأة إنه يستدرج الشخصيات التى تناول الكتابة عنها؛ لتعبر عن رأيها فى الصداقة والحب ، وفى التبـاغض وطبـاع النفوس وعواطفها ثم بشرح أفكارها ومشاعرها.

ويعرف الكثيرون بواعث هذا السحاب (الذى جاء بعدما أثير من زوابع وأعاصير حول رسائل الأحزان ... جاء السحاب بعد أن يـئس

---

(١) رسائل الأحزان صـ٧ .

(٢) السابق صـ٣٩ طبع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٢م.

الرافعي من مواجهة (مي ، وطه حسين ، والعقاد حتى تصور بعـض رجالات الأدب والفكر أن ما أثير لم يكن إلا مؤامرة ضد الرافعى أسهم كل واحد من هؤلاء الثلاثة بنصيب فيها كل على قدر توجهه وحكمـه على هذا الرجل الذى لم يسكت استسلاما وضعفا ، وإنما حمـل القلـم ودافع به عن نفسه لتثبيت أركانه، وغرس أوتاده، وشرح فلسفته فـي الحكم على المرأة اقترابا منها أو ابتعادا عنها، وفى التعبير عن طبائع النفوس وعواطفها، ولم يكن الكتاب على صورة رسائل الأحزان، وإنما كان يستدرج النفوس الغائبة فى العالم الأخر؛ لتعبر عـن رأيهـا فـي الصداقة والحب أو يستعين بها ؛ لتعبر فى الحقيقة عن رؤية الرافعي، ولم يكن لينسى محبوبته فى فصول هذا الكتاب، كأنه يريد تأكيد وجوده وتصوير فلسفته التى جاءت غائمة أو مخبأة وراء السحاب الأحمر ٠

وقد كتب السحاب فى شهرين خلال عـام ١٩٢٤م وهـي مـدة وجيزة يعجز فيها أكبر الأدباء والمفكرين عن تقديم مثلا فضـلا عـن صغارهم، وهذه واحدة من نقاط التحدى التى جاهر وواجه الرافعى بها كثيرا من خصومه خاصة أنه كان يعانى فى الكتابة معاناة شديدة٠

إن هذا الكتاب فى حاجة إلى قراءات متعددة لكشف ما بـه مـن بعض الغموض الذى يثير القلق لدى المتلقى، ولو جـرد مـن بعـض صحائفه لكان الباقى أدبا يتيه به الزمان أكثر ما كان عليه الحال فـي حياة الرجل وبعد مماته لكنه عند ذلك لن يمثل البيئة ولا الحال المحيط بصاحبه فى زمن التأليف والابتكار ٠

وفى الفصل الثانى من الكتاب[١] أورد مجموعة من الأحاديث والخواطر فى طائفة من النساء، فيقول مستردا أنفاسه، ومدافعا عن كرامته وحبه : "وقلت يوما فى صفة ...."[٢].

وبعيدا عن المواقع الغامضة قال فى الفصل الثالث عن السجين الذى تبعد به عربة السجناء عن أولاده وزوجته المتعلق قلبها به لينال مصيره المحتوم ، وهنا يتساءل الرافعى : "أجرم السجين فأخذ بذنبه، فما ذنوب هؤلاء جميعا؟ نزت كبدى لما رأيت الحب الهالك يستنفض امرأة السجين ويسوقها جامحة فى عنان الغيظ تترامى على وجهها"[٣].

ولم تبعد هذه الفلسفة والرؤية الإنسانية بالرافعى عن دائرة الحب لمى التى أقبل عليها وأدبرت عنه وانصرف إليها وهامت بغيره، ويبدو أن روحه الشفافة السامية لم تستوعب هذا القدر العالى من الجمال، فكانت الغصة التى لم يرتو بعدها أبدا، لكن القلق الذى أصاب الرجل انعكس على السحاب فجاء مشوبا بالاضطراب والقلق، ومصحوبا بالتكلف فى بعض مواقعه .

ويضم الكتاب الثالث (أوراق الورد) الرسائل التى تغنى فيها بالحب والجمال باعثا بها إلى مى وإلى صحفية من لبنان وبعض الجميلات الأخريات .

---

(١) وهو بعنوان : النجمة الهاوية .
(٢) انظر كتاب (الرافعى ومى) ... فى بحث هذا الموضوع .
(٣) الرافعى ومى صـ٢٧ .

أما الرسائل التى تلقتها مى من الرافعى ومن نحو مائـة كاتـب ومفكر وشاعر وفيلسوف فبقيت سرا محفوظا لم يطلع عليه إلا القليـل من المقربين منها ٠

وجاء[١] انطون الجميل وخليل مطران فجمعـا هـذه الرسـائل وأعداها للنشر إلا أن لطفى السيد اعترض عليهما قائلا : " هذه مؤامرة لم تشأ أن تذيع سرها، ولو شاءت لنشرت هى هذه الرسائل فى حياتها" وحارت الفكر، ولم يظهر الكتاب ...

ولكن من قال إنها لم تشأ ، أليس واردا أنها كانت رغبـة لـديها ولكن القدر لم يسعفها، ولو تيسر لى جمع هذه الرسائل لاستسمحت من بقى من أسرة هذه الأديبة فى نشر هذا التراث الخالد الذى لا شك فـى أهميته بالنسبة للمعارك الأدبية فى الثلث الأول من القرن العشرين٠

ويصور فى الكتاب الثالث (أوراق الورد) صلته بمـى تصـويرا دقيقا وصادقا حيث قال : "إنه ليس معى إلا ظلالها ولكنها ظلال حيـة تروح وتجيئ فى ذاكرتى"[٢].

وتحدث فى مقدمة الكتاب عن نفسه فقال : "وتاريخ الحـب عنـد صاحب هذه الرسائل ...."[٣].

---

(١) أهرام ١٩/ ١١/ ١٩٩٩ كلمة للأستاذ ياسر قطامش ٠
(٢) من كتاب (أوراق الورد) ٠
(٣) انظر الرافعى ومى صـــ٥٠ ٠

واللغة الشاعرية هى سمة هذا الكتاب خاصة أن به تسع قصائد كاملة، وما عداها فهو شعر منثور لا يتيسر لكاتب أن يأخذ منه شيئا ويترك أشياء لكن فصول الكتاب لم تكن قاصرة على الحب فانصرف الرجل إلى بحث العديد من القضايا الإنسانية التى شغل بها ، واستكمل بحث الكثير منها فى (وحى القلم)٠

لقد ضم الكتاب خمسا وثلاثين رسالة منها واحدة من كتب مى فى إشارة واضحة إلى أنها كانت تراسله، مع أننا لسنا على يقين من أنها كانت تراسلة إلا إذا تيسر للقراء الإطلاع على كامل تراثها بما فيه الرسائل التى لم تطبع٠

وقد تميز هذا الأديب الحجة، وصاحب الأسلوب المتميز بفن كتابة الرسائل التى لم تختلف من مناسبة لأخرى، وتجلت قدراته فى رسائله إلى صديقه محمود أبى ريه الذى كان يقيم بالمنصورة، وتلقى منه ما يقرب من ثلاثمائة رسالة نشر منها مائتين وثمانى عشرة فى كتاب بعنوان (رسائل الرافعى)٠

كما تحدث عن حبه لفتاة من لبنان، والذى تمخض هذا الحب الأول الذى ذكره للناس عن كتابه (حديث القمر) ، وقد كان هذا الحب بابا واسعا للدخول إلى حب (مى) والإقبال عليها، ثم الانصراف عنها، بعد أن صدم بانشغالها عنه، وانصرافها إلى الكثيرين الذى احتلوا مواقع مهمة فى تفكيرها وعاطفتها، والحوار الطويل معها ٠

وقد جسد الرافعى تجربته فى الفلسفة والحب والجمال، وصاغها فى ديوان شعرى من ثلاثة أجزاء ، عرض فيه لمعظم فنون الشعر، وليس الهجاء منها يقينا، إذ كانت نفسه قوية وعزيمته جبارة ، فمن كلامه "إذا قويت النفس أذلت الدنيا، وإذا ضعفت أذلتها الدنيا، وإن النكبة كلها هى أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته فينكب أول ما ينكب فى صبره ويقينه" ٠

ولقد اتسعت رؤيته الإنسانية ، فحرص على إيضاح نظرة الإسلام للعلاقة بين البشر جميعا من فقراء وأغنياء، قال :

" إن عدل الله يقضى أن يكون للفقير نسبة من الثروة، وإنما الجزء المهم من هذه الثروة هو الإحساس فى ضمائر الأغنياء، فإنك لا تجد الفقير فى أى عصر من العصور إلا جهة من الخلل فى نظام النفس الإنسانية" ٠

ونأتى إلى منهجه وفلسفته فى الحفاظ على بيئة الشرق العربى ومقدساته ولغته العربية الأصيلة، حيث بدأ ذلك بما نشره عن الجامعة المصرية فى أعقاب نشأتها يستحثها على ضرورة الصحوة الأدبية والفكرية، فكان أن استجابت لتوجهاته، وأعلنت عن مسابقة لوضع كتاب فى أدبيات اللغة العربية ، وهب نشيطا لذلك، وألف كتابه تاريخ آداب العرب ، وطبع الجزء الأول منه فى أوائل عام ١٩١١م، وصدر الجزء الثانى فى السنة التالية ٠

لقد نشر الرافعى عددا كبيرا من المؤلفات الرائدة التى تميزه عن غيره وتضعه فى مقدمة الرواد الذين ملأوا البيئة العربية ثقافة وفكرا، وصارت نشأته عبرة للشباب الذى يريد أن يصل إلى المجد ؛ وليرجع من شاء إلى (وحى القلم) من ثلاثة أجزاء، و(تحت راية القرآن) ، و(إعجاز القرآن) وغيرها وغيرها.

أما كتابه (تحت راية القرآن) فيمثل معاركه النقدية مع الدكتور طه حسين إذ كانت نشأته الدينية وثقافته الإسلامية أهم العوامل التى دفعته إلى أن يحتل المنزلة التى وصل إليها، فهو مفكر متمكن وأديب مثالى، اتخذ له أسلوبا خاصا يكتب به ، أسلوبا جمع الفضائل الكتابية فى اللغة ، والخيال، فى البيان والتشبيه، الأسلوب الأدبى الذى التزم به ليبدع فى نطاق المعرفة والثقافة[1].

وقد تغذت روحه، ونمت أفكاره، وتهذب أسلوبه، وتعمقت عاطفته فى جو دينى، وكان يضايقه صممه إلا أنه قد أفاد منه الكثير، بأن حجب عنه صخب الحياة، وضجيج الناس حوله، فنعم بحريته الفكرية المطلقة.

ولقد شغل الرافعى باللغة، وتأثر بالقدماء من أمثال الجاحظ وأبىحيان التوحيدى، ولم تكن الكتابة البيانية شيئا يسيرا بالنسبة له، حيث تحتاج إلى تأمل طويل للأفكار التى يلتئم منها الموضوع،

---

(١) الرافعى ومى – عبدالسلام هاشم ص٨٩، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

وعرض لتلك الرؤية فى مقدمة الجزء الأول من كتابه (وحـــى القلـــم) حيث قال :

" لا وجود للمقالة البيانية إلا فى المعانى التى اشـــتملت عليهـــا، يقيمها الكاتب على حدود، ويديرها على طريقة ، مصيبا بألفاظه مواقع الشعور ، منيرا بها مكامن الخيال ، آخذا بوزن، تاركا بوزن ؛ لتأخـــذ النفس كما يشاء وتترك، ونقل حقائق الدنيا نقلا صحيحا إلى الكتابة أو الشعر هو انتزاعها من الحياة فى أسلوب ، وإظهارها للحياة فى أسلوب آخر ، يكون أوفى وأدق وأجمل ، لوضعه كل شئ فى خـــاص معنـــاه، وكشفه حقائق الدنيا كشفة تحت ظاهرها الملتبس"٠

فالمقالة البيانية تستلزم الدقة والصدق حتى تـــؤثر فـــى العاطفـــة والخيال ويرى أنه لابد لصاحبها من أن يكون ذا بصيرة نافذة، حتـــى ينكشف له ما فى الدنيا من أسرار وأفكار وروعة وجمال٠

وهكذا يتجلى مصطفى صادق الرافعى فى فكره وفلسفته وعالمه الرحب وإيمانه العميق ونراه واضحا فى علاقته بالمرأة وكل جوانـــب الحياة ويبدو مخلصا غاية الإخلاص وهو يكتـــب عـــن الأدب وعـــن إعجاز القرآن وعن رسائل الأحزان فاستحق التقدير من جمهرة العلماء والمفكرين حتى الذين اختلفوا معه لم ينكروا جهوده فى خدمة التـــراث الإنسانى واللغة العربية وسائر اللهجات التى تفرعت أو انحرفت عنها، ومما كتب عنه ما يأتى : "اجتمعت فى شخصية الرافعى كل الصـــفات

الإنسانية للمسلم المؤمن القيم على دينه وقوميته وبلاغة لغته التى أنزل بها القرآن بينات من الهدى إلى الناس"[١].

وقال عنه الدكتور شوقى ضيف "والرافعى حقا من كتابنا القلائل الذين عاشوا معيشة داخلية فى حقائق دنيانا، متجاوزا ظاهرها الحسى إلى قواعدها الروحية الباطنة، وقد أعانه على ذلك صممه المبكر الذى جعله يحيى بين الناس وكأنه غريب عنهم ، ويتحدث إليهم وهو لا يسمعهم، فكان طبيعيا أن يفضى إلى ذات نفسه، وأن يعيش هذه المعيشة الداخلية التى عكف فيها على عقله، وانطلق به متجولا فى باطن الحقائق الظاهرة مسلطا عليها من اشعاعاته العقلية ما جعل معانيها الخفية تتألق أمام عينيه"[٢].

وحسبه ما قاله عنه زعيم الأمة سعد زغلول : "بيانه كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم ، رحمه الله رحمة واسعة جزاء إخلاصه للغة القرآن وأدب العرب وحضارة الإسلام.

كان الرافعى يمتلك أسلوبا قويا يتجه به إلى حيز الغموض ، أو يسمو بصياغته فوق هامة الأساليب الحديثة ، واللغة عنده هادرة متموجة وقوية عنيفة، وينفلت معها لسانه ، فيندفع إلى التطاول على الآخرين ، وكأن الأداة أو التشكيل لديه لا يسعفه فى تسفيه آراء خصومه، فيضم للغته مفردات وتعبيرات مخصصة لهم، ويبالغ فى التكلف وربط أجزاء الكلام خاصة عند التعبير عن حبه، ويميل إلى

---

(١) السابق ص٨٩ .
(٢) الأدب العربى المعاصر فى مصر ــ د. شوقى ضيف ص٢٤٧ .

الاستطراد وتوليد الألفاظ، والسير على منهاج الجــاحظ وأبــى حيــان التوحيدى فى نصاعة البيان وتعميق الفكر ومزج الشعر بالنثر ، وربما يضعف أمام الآخرين فيتصيد مدحهم له، أو يثنى على مؤلفاته ، ويشيد برسائله وما جاء فيها عن الحب والفلسفة والجمال •

ويبدو أن عاهة (الصمم) التى أصيب بها قد ألحقت به أذى وضررا كبيرا، فتوجس خيفة من بعض مخالفيه كالعقاد وطه حسين، فعاش معظم سنوات حياته فى قلق وهم وضيق ومعاناة •

على أدهم
بين الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ

يعد (على أدهم) واحدا من رواد الفكر المعاصر الذين أثروا المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات الزاخرة التى يذكرها القراء بكل إعجاب وتقدير ٠

لقد كان الرجل يعيش حياة الأدباء والمؤرخين الذين يقنعون بالقليل من متطلبات الحياة، ويسعون إلى الثقافة والمعرفة بكل شوق ونهم، فجاء إلى الدنيا وغاب عنها بعد أن خلف تراثا متميزا يقبل عليه الأدباء والنقاد، ويتعلم منه المؤرخون والفلاسفة، ويستفيد به العشاق والمتصوفون ٠

لقد قرأ الناس حياة العقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، والمازنى وشوقى ضيف ، بأقلامهم التى أرخوا بها لحيواتهم المختلفة ورضى بها البعض ، واختلف حولها الكثيرون، لكن (على أدهم) لم يترك كتابا يروى فيه سيرة حياته الذاتية ، حتى يمكن الرجوع والاحتكام إليه حول أى اختلاف يثار عن مسيرته الفكرية ورحلته العلمية، ولم يكن الرجل متفردا فى هذا المنزع فإن كثيرين مثله تركوا تاريخ حياتهم للآخرين ليقولوا فيه ما لا يمكن أن يقوله الشخص عن نفسه ، وهذه وتلك وجهتا نظر ، أو قضية ذات جوانب متعددة يختلف الناس حولها، ولا يكادون يتفقون فيها ٠

ونجد بين أيدينا كتابا مهما للأستاذ / أحمد حسـين الطمـاوى ، بعنوان (على أدهم بين الأدب والتاريخ) عرض فيه لحياة علـى أدهـم وكتبه ومقالاته . كما نطالع أطرافا وجوانب متعددة بـأقلام أصـدقائه وأدباء عصره، أرخوا فيها لحياته ، وتوجهوا لشخصيته، وانتقـدوا أو قرظوا العديد من مؤلفاته ، نذكر منهم : العقاد ، وطه حسين ، ووديـع فلسطين . وسيد قطب ، ومحمد خليفة التونسـى، ورجـاء النقـاش ، وأنيس منصور ، وعبدالعزيز الدسوقى، ومحمد رجب البيومى، ونبيـل فرج ، وغيرهم ٠

ومما كتبه أحمد الطماوى فى مقدمة كتابه المذكور : "لم يترك لنا على أدهم سيرة ذاتية نرجع إليها عند الترجمة له مثل العقـاد ، وطـه حسين ، وأحمد أمين ، ولا مذكرات يروى فيها ذكرياته، وأخبار حياته مثل عبدالرحمن الرافعى ومحمد حسين هيكل ، ولا صـورا شخصـية تعكس بوضوح الملامح النفسية والبيئية الاجتماعية، وظروف النشـأة والتربية مثل إبراهيم عبدالقادر المازنى ، ولا هـو مـن كتـاب أدب الاعتراف مثل عبدالرحمن شكرى ، وحافظ نجيب ، إن شيئا من هذا لم يكن يشغله ٠

وإنما شغلته دراسات تحكى رحلة عقل فى عوالم الثقافات ، تبهره المعارف وتطربه الحقائق ، وتستحثه ظـواهر الكـون إلـى التأمـل والتصفح ، واستغرقته أسفار تروى قصة نفس تواقة لى معرفة أسرار الحياة، وكنه الوجود، وماهية الجسد والروح، وعلة شـقاء الإنسـان،

والولع بدراسة الأنماط النفسية والسلائق الإنسانية وقدرات العقل وملكات الخيال"[١] ، ونفتح صفحات تاريخه فنراها مليئة بالتقلب وعدم الاستقرار فى معظم سنوات حياته، كشأن الحياة السياسية فى النصف الأول من هذا القرن ٠

ينحدر (على أدهم) بأصوله ونسبه إلى الأتراك ، فقد عاش جده فى (كوتاهية) ونزح إلى مصر فى القرن التاسع عشر ، ومعه ابناه، وأصغرهما يسمى (محمد جمعة) الذى حصل قدرا من التعليم، والتحق بوظيفة فى مصلحة الجمارك بالإسكندرية، وأقام فى رأس التين، وظفر بحب زملائه ورؤسائه والمقربين منه، وأغرم بأدهم باشا الذى حقق انتصارات ساحقة للدولة العثمانية على اليونانيين، ونترك هذا الجانب لنتابع رحلة (محمد جمعة) الذى تزوج من مصرية ، وأنجب منها ولدا فى التاسع عشر من يونية عام ١٨٩٧م أطلق عليه اسم (على) ولإعجابه وتيمنه بالبطل العثمانى (أدهم باشا) سمى ابنه (على أدهم)٠

تنقل (على أدهم) فى طفولته بين المدارس المختلفة إلى أن نال الشهادة الابتدائية فى مدرسة رأس التين عام ١٩١١م كما تتلمذ على يد (محمود فهمى النقراشى) بالقسم الثانوى فى مدرسة رأس التين ، وتلقى التاريخ والجغرافيا على يد الشاعر المجدد (عبدالرحمن شكرى)، ثم توفى والده، فانتقل إلى القاهرة، ليكون فى معية خاله (أحمد فوزى) المثقف المصرى المستنير فى ذلك الوقت، والتحق بالمدرسة الخديوية،

---

(١) أحمد حسين الطماوى ــ على أدهم بين الأدب والتاريخ ص ٩ ، ١٠ ٠

والتقى فيها بزميله الطالب (عبدالرحمن صدقى) والذى صار فيما بعد شاعرا مشهورا ٠

أتم على أدهم تعليمه الثانوى، وحصل على البكالوريا عام ١٩١٦م، وأتاحت له الدراسة بالخديوية والإقامة فى القاهرة أن يتعرف على رواد المدرسة الجديدة فى الشعر وهم: عبدالرحمن شكرى، وإبراهيم عبدالقادر المازنى، وعباس محمود العقاد، أصحاب التيار الأدبى الذى عرف بمدرسة الديوان ٠

عاد (على أدهم) إلى الإسكندرية، وعمل بها فى مصلحة الجمارك، وتولى والدته بالرعاية والعناية، ولما لحقتها الوفاة شعر بأن الدنيا قد اسودت فى عينيه، فانتقل إلى القاهرة، بوظيفة فى مصلحة الجمارك أيضا، ورست سفينته فى وزارة المعارف التى قضى بها شطرا كبيرا من حياته، وعمل بمكتب الدكتور / طه حسين، عندما كان وزيرا للمعارف، ثم استقر فى إدارة الثقافة حتى خرج إلى المعاش، واستمر فى رحلته الطويلة مع الأدب والنقد والتاريخ والفلسفة، إلى أن توفى فى الثامن من يناير عام ١٩٨١م عن خمسة وثمانين عاما٠

والملاحظ أن حياة هذا الكاتب فى مراحلها الأولى لم تكن ناعمة لينة، بل كانت وعرة قاسية، فقد ترك القاهرة، بعد أن شاهد الحركة الأدبية بها، وغمس ريشته فى مداد المجلات الأدبية الذائعة، كما أنه لم يلتحق بالجامعة المصرية أو الجامعات الأجنبية، لكنه تأثر بالعقاد، وسار على نهجه، ونسج على منواله، وحرص على تثقيف نفسه بنفسه،

وقرأ الشعر العربى القديم والروايات الأجنبية المترجمة، وأجاد بعــض اللغات الأجنبية، وفى مقدمتها الإنجليزية التى نقل منهــا إلــى اللغــة العربية بعض الكتب والقصص والمحاورات .

أما حياته الاجتماعية فقد كانت هادئــة مســتقرة ، إذ رزقــه الله زوجة عملت على راحته، وتحملت عنه أعباء المنزل وتربية الأبنــاء، وهيأت له الجو الملائم للفكر والإبداع، ولم تصرفه عن الرسالة التــى شغل بها طوال حياته، وإذا كان الرجل قد ألم بالثقافة الأجنبية فإنه لــم يقصر فى حق التراث العربى. فجمع فى جعبته ألوانا مختلفة وضروبا متباينة من الثقافات المتعددة والمعارف المتنوعة، ولذلك غلبت النزعة الإنسانية على فكره ونتاجه بوجه عام .

لقد التقى الأدب والتاريخ وامتزجا امتزاجا كبيرا فى كتابات (على أدهم) ولهذا نراه يتحدث عن كتابة التاريخ بالأسلوب الأدبــى فيقــول: "وكاتب التاريخ ــ سواء كان يكتب عن حياة إنسان أو حياة عصر من العصور ــ يريد أن يثير خيال القارئ ، وأن يوحى إليه ويــؤثر فــى نفسه فلا مفر له من اتباع أساليب الأدب والفن، ولا نزاع ــ فيما أعتقد ــ أن التاريخ المعروض عرضا أدبيا فنيا يبعد مدى التفكير، ويوســع الخيال، ويخرجنا من قيود الحاضر وسدوده ، ويطلعنا على دنى أخرى مختلفة عن العالم الذى ألفناه . وكدنا لطول الألفة أن نمله، ونتطلع إلى سواه"[١].

---

(١) على أدهم ــ صور تاريخية ص٤ ، ٥ .

ومن أهم مؤلفاته فى حقل التراجم الأدبية (صقر قريش) و(منصور الأندلس) ، و(المعتمد بن عباد) ، و(عبدالرحمن الناصر) وهى مجموعة من التراجم القيمة عن أدباء الأندلس وأعلامه المشهورين ·

و(منصور الأندلس) علم من أعلام الإسلام وهو من "أعظم رجال الأندلس فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، وأقدر وزرائها وأرجحهم وزنا، وأبعدهم غورا ، وأسماهم عبقرية، وأسيرهم ذكرا، وهو أحد الثلاثة الأفذاذ المعدودين فى تاريخ الأندلس السياسى، والآخران هما : الأمير عبدالرحمن الداخل ــ صقر قريش ــ والخليفة عبدالرحمن الناصر"[١]، والكتاب المذكور فى مائة وسبعين صفحة من القطع المتوسط ·

كما أخرج مجموعة من الكتب التاريخية التى كان قد قدم أكثرها إلى المجلات المختلفة مثل : "بعض مؤرخى الإسلام"، و(صور تاريخية) و(الهند والغرب) و(شخصيات تاريخية) ·

وعندما نقرأ التاريخ من خلال كتابات (على أدهم) نشعر بالدقة التامة والأمانة الكبيرة، والواقعية المتميزة خلال المراحل الزمنية المختلفة ، وانعكس ذلك على مقالاته وكتبه ، فخلت (أو كادت) من الخرافات والأوهام، تلك التى تصلح مادة خصبة للأدب والخيال، وتساير العاطفة والوجدان ، ولا تتواكب مع الحقائق والتاريخ ..

---

(١) على أدهم ــ منصور الأندلس ص١ ·

واقتصر أسلوبه التاريخى على الحقيقة المجردة التى تصور الواقع تصويرا صادقا .

ولقد جمع عددا من الدراسات التاريخية فى كتابه (بعض مؤرخى الإسلام) فكتب عن الطبرى ، والمسعودى ، وأبىحيان التوحيدى، وأبىحيان الأندلسى، وابن بسام ، وياقوت الحموى الذى عاش فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، ومما قاله أدهم عن ياقوت: "والعجيب فى أمر هذا الرجل الذى عاش هذه العيشة القلقة المضطربة أن ترك طائفة من الكتب بينها كتابان يعدان من أنفس الكتب فى المكتبة العربية، وهما كتاباه: معجم الأدباء الذى سماه ياقوت (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وكتاب (معجم البلدان) [1].

دخل (على أدهم) إلى التاريخ من بوابة الأدب والنقد التى وشاها وطرزها ببعض الأزاهير المتفتحة والثمار الناضجة والصور الخلابة، ومن أهمها وأبرزها مجموعة من كتبه التى قرأها الناس وأعجبوا بها مثل : (صور أدبية) و(على هامش الأدب والنقد) و(ألوان من أدب الغرب) و(فصول فى الأدب والنقد والتاريخ) .

والملاحظ أنه قد حاول بكل جهده أن يربط بين التاريخ والأدب، ويقرب المسافة بينهما، وإذا كان قد ألف كتابه (صور أدبية) فإن كتابه (صور تاريخية) قد لحق به وجاء بعده، وشغل الرجل بهذه العلاقة الحميمة بين التاريخ والأدب وكتب عنها فقال : "وعلاقة التاريخ بالأدب

---

(١) على أدهم ــ بعض مؤرخى الإسلام صــ١٢٨ .

والفن علاقة قديمة وحميمة، والقرابة بينهما قرابة جد دانية بل هما توأمان، حياتهما وازدهارهما فى الاقتراب والاتصال ، وفى تباعدهما وتناكرهما ما يعطل نموهما، وما قد يقضى عليهما معا"[١].

وعرض الرجل فى الجانب الأدبى للعديد من الأعلام، وكتب كثيرا من المقالات فى المجلات المختلفة مثل : المقتطف ، والثقافة والرابطة الإسلامية ، والمجلة ، والعربى وغيرها، وشملت كتاباته التى تألفت وانضم بعضها إلى بعض فى كتب متداولة شملت العديد من الأدباء الأعلام من سائر أرجاء الأرض فكتب مثلا عن تولستوى وشوبنهاور وجيته وبلزاك، كما كتب عن الشاعر الفلسفى القديم أبى العلاء المعرى .

ولقد تناول هذا الشاعر من كافة نواحى العبقرية عنده بقلم الفيلسوف الذى لا يقف عند ظواهر الأمور، ولا عوارض الأشياء، وإنما يجول فى أعماق النفس ، وجوانب العظمة، ويحللها، وينتهى إلى النتائج التى لا تقبل الجدل والنزاع ، وقد كتب فى مقدمة مقالة له بعنوان "أبوالعلاء وفلسفة التاريخ" قائلا :

" أبوالعلاء المعرى شاعر كبير عرك الحياة، وبلا الناس، وترك فى شعره ذخيرة لا يستهان بها لقراء القلب البشرى، ومفسدى غرائب النفس الإنسانية، ولكن شعره الحاشد بالتبرم والسخط والخاص بالتشاؤم والتطير لا يسمو بك فوق متناقضات الحياة إلى عالم الاتساق والتوافق،

---

(١) على أدهم ـ صور تاريخية ص٣ .

ولا يرفعك إلى الجو الفنى الهادئ حيث تنسى الأوطار واللبانات، ولا تهفو بك أحزان الحياة، ولا تطرقك هموم العيش، وهو حكيم مخلص يكشف لك عن أعمق علاقات الكون بالإنسان ، ويحلو لك أفانين الطباع ، ويرسل الضوء فى غيابات النفس، ولكن حكمته لا تهدى الضال إلى الصراط المستقيم، ولا ترفع المصباح لسارى الليل، وخابط العشواء، ولا تؤاسى من ساءه الدهر وتنكر له الحظ ، ولا ترده إلى الأمل من أزمع اليأس، ولا تزيد المقدامة الشجاع إقداما وشجاعة، بل قد توهن ارادته وتثلم عزيمته، وتيئسه من الصعود إلى مصاف الأبطال ومراتب العظماء ... " .

أما قراءة على أدهم للتاريخ فهى مختلفة عن صنيع الآخرين فهى ليست قراءة سردية جادفة، وإنما قراءة المحب العاشق للأحداث حيث يمعن فيها تحليلا وتفسيرا، وبيانا لرسالة الفرد فى المجتمع ودوره فى الحياة، ولذلك احتلت حياة المفكرين عنده مكانة مرموقة خاصة أن الدور المنوط بكل واحد منهم يختلف كثيرا عما نهض به الآخرون، فغلبت التراجم التاريخية والفلسفية عنده سواها من فنون الكتابة الفنية والفلسفية والنقدية .

ولم تقتصر رسالة على أدهم على الأدب العربى وفنونه وتاريخه وإنما صال وجال فى سائر الآداب العالمية مما أسهم فى سعة إدراكه

وعمق معرفته، وشمول نظرته للأدب والفلسفة والحياة فى الأدب العربى والفلسفة القديمة والحديثة على السواء[١] .

ولم تخضع أحكام (على أدهم) ونقداته للمترجم لهم إلى الذاتية المحضة أو العاطفة الخادعة أو الخيال الواهم، وإنما استند إلى الحيدة والموضوعية التى قال عنها أحمد الطماوى : "على أدهم ناقد موضوعى، يميل إلى التحليل والتعليل، ولا ينكر دور التذوق فى كتاباته، ولكن لا يوكل العملية النقدية برمتها إليه، عبارته هادئة رشيقة، ومعانيه — على جلالها — سافرة ضاحية ، وحكمه على الآداب والفنون لا يأتى إلا بعد مصايرة ومراجعة واستيفاء الموضوع الذى يطرحه للنقاش"[٢] .

ولم تتوقف عصارات الرجل وثمار تجاربه عند الأدب والنقد والتاريخ، فقدم مجموعة من الدراسات الفلسفية والاجتماعية نذكر منها:

(بين الفلسفة والأدب) ، و(لماذا يشقى الإنسان؟)، و(نظرات فى الحياة والمجتمع) .

وربما يظن البعض أن هذا الكاتب المتميز فى أساليبه وموضوعاته لم يشارك فى الحياة السياسية ، واعتكف فى صومعة الأدب والفلسفة والتاريخ، لكن الرجل العاشق لوطنه، المحب لأمته، والذى طوف فى قراءاته بين الشرق والغرب، وطالع تجارب الأمم

---

(١) بين الفلسفة والأدب — على أدهم صـ٣٤ دار المعارف ١٩٧٨م.
(٢) أحمد الطماوى — على أدهم بين الأدب والتاريخ ص٣١ .

ومذاهبها السياسية قد شارك بفكره ورأيه قرابة عام فى مجلس قيـادة الثورة المصرية فى الخمسينيات، وكذلك لا يخلو نتاجـه مـن الكتـب السياسية، فقدم عددا لا بأس به من هذا اللون نذكر منـه : (المـذاهب السياسية المعاصرة) و(حقيقة الشيوعية) ، و(الشيوعية والاشـتراكية) وغيرها ٠

لقد كرمت الدولة (على أدهم) ، وأهدته وسام العلوم والفنون مـن الطبقة الأولى عن جدارة واستحقاق ، واستقبل الناس كتبه بالإعجـاب والتقدير، وتحدث عنه الأدباء والمفكرون من رجالات عصره ، فقـال العقاد فى مجلة الدستور عام ١٩٣٩م : "على أدهم رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف، ورؤية العالم، وحماسة الأديب، ويعرف من مـذاهب الفلاسفة العظام فى أسرار التاريخ ما ليس يعرفه عندنا غيـر أفـراد معدودين ، فإذا تناول قبيلا أو رجلا أو دولة نفذ إلى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله فى مذاهب التعليل والتحليل" ٠

وكتب عنه الدكتور / عبدالعزيز الدسوقى فى مجلة الثقافـة فـى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧م فقال : "الميزة الكبرى لعلى أدهـم ــ فـى تصورى ــ هى امتزاج وعيه التاريخى الدقيق بحسه الأدبى العميـق، ومن هذين المصدرين: "الوعى التاريخى والحس الأدبى" تشكل مزاجه الفكرى الخاص، وأصبح مؤرخا عظيمـا، حـول أحـداث التـاريخ، ووقائعه، وشخصياته إلى مادة أدبية خصبة ملهمة مثيرة دون أن يجور على أحداث التاريخ ووقائعه"٠

وأعدت عنه رسالة جامعية بعنوان (فن المقالة عند على أدهم) فى كلية اللغة العربية بالمنصورة، وكنت أحد المناقشين لها، وسعد بها الكثيرون فى مقدمتهم صديق على أدهم ورفيق دربه الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى الذى كتب عنه مقالة ضافية فى كتاب (دراسات أدبية) الجزء الأول .

هذا هو (على أدهم) الذى كتب الكثير، ولا يعرف الناس عنه إلا القليل، ونرغب من الهيئة المصرية العامة للكتاب أن تولى مؤلفاته بعض العناية اللائقة، فلا يعقل أن يبحث القراء عن كتبه فلا يجدونها.

وإذا كانت الهيئة قد طبعت له من قبل كتابين أو ثلاثة، فإن الحاجة ماسة الآن لإخراج كتبه وإعادة طبعها، حتى يتعرف الجيل الجديد على رواد التنوير فى الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ .

الطبيعة المصرية
فى رواية (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل(*)

(زينب) رواية فنية اجتماعية تعبر عن حـب الكاتـب لوطنـه وفرضه على وصف الطبيعة، ومعالجة الواقع، وإبراز ملامح الحيـاة فى الريف المصرى بصورة عامة ٠

ولم يتوقف فن الرواية عند حدود فاصلة، فدخل منعطفا جديـدا بعد (زينب) لم يكن يتوقعه أحد، فصارت الرواية أنماطا وألوانا تعلـق الناس بها، وأقبلوا عليها، ولم تعد قاصرة على مجموعة من حكايـات التسلية التى يقضى القراء معها أوقات فراغهم، وإنما صارت ضـربا وإبداعا متجددا من التأليف يحمل مضامين جديدة حتى اقتربت صـورة الأداء فيها مما يسمى قصيدة النثر، التى كثر الضـجيج حولهـا فـى السنوات الأخيرة مع عدم وجود كيان واضح لهـا فـى سـاحة النقـد والنقاد٠

وقد سبقت (زينب) بمجموعة مـن الروايـات التـى لا يصـح إغفالها، ونحن بصدد الحديث عن فجر الرواية الفنية فى مصر، نـذكر منها ، القصاص حياة (١٩٠٥م) للكاتب المغمور عبدالحميـد خضـر البوقرقاصى ، وعذراء دنشـواى(١٩٠٦م) لمحمـود طـاهر لاشـين وغيرهما ٠

وكتب الدكتور هيكل هذه الرواية فى مدة وجيزة ، حيث بـدأها فى باريس عندما كان يعد رسالته للدكتوراه فى القانون (عن الاقتصاد السياسى)، وكتب جزءا منها فى لندن، وآخر فى جنيف، وذلك قبل أن

(*) الدكتور محمد حسين هيكل أديب وسياسى ومحـام معـروف (١٨٨٨م ــ ١٩٥٦م) ٠

يعود إلى مصر فى منتصف عام ١٩١٢م ، ووضع عليها اسم (مصرى فلاح) ثم غيره إلى (فلاح مصرى)، ونشرها لأول مرة عام ١٩١٤م، وأضاف إلى عنوانها الأنثوى قوله : "مناظر وأخلاق ريفية"، وفى عام ١٩٢٩م وضع اسمه عليها ، وطبعها فى العام المذكور وهو الذى نشر فيه الدكتور طه حسين كتابه الأيام ٠

وذكر الدكتور هيكل سبب اختياره لكلمتى "مصرى فلاح" ولماذا وضعهما على غلاف الرواية بديلا عن اسمه ، قال : "ولقد دفعنى لاختيار هاتين الكلمتين شعور شاب لا يخلو من غرابة ، وهو هذا الشعور الذى جعلنى أقدم كلمة "مصرى" حتى لا تكون صفة للفلاح إذا هى أخرت ، فصارت "فلاح مصرى"، ذلك أنى إلى ما قبل الحرب كنت أحس — كما يحس غيرى من المصريين، ومن الفلاحين بصفة خاصة — بأن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام ٠

فأردت أن استظهر على غلاف الرواية التى قدمتها للجمهور يومئذ ، والتى قصصت فيها صورا لمناظر ريف مصر وأخلاق أهله، وأن المصر الفلاح يشعر فى أعماق نفسه بمكانته، وبما هو أهل له من الاحترام، وأنه لا يانف أن يجعل المصرية والفلاحة شعارا له يتقدم به للجمهور، يتيه به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه"[١]٠

وحولت زينب وغيرها من الروايات المبكرة الإنظار إلى القصة والرواية ، حيث كان فن النص فى أدنى درجات السلم الأدبى، وصار له ما لم يكن فى خيال الأدباء منذ العصر العباسى الأول ، ذلك لأن

---

(١) من مقدمة الرواية فى طبعتها الثالثة ٠

المكانة السابقة والسامقة للشاعر كانت متقدمة وبارزة (إذ أن القبيلة كانت تسمو بمن لديها من الشعراء، وكان الشعراء يحتلون مكان الريادة التوجيهية فى المجتمع ، فلما جاء العصر الحديث وكانت الرواية مرتبطة بمنزلة أدبية متدنية ، وكذلك خشى الدكتور هيكل أن يوصف بكاتب رواية ، فيؤثر الوصف على صفته وعمله فى مهنة المحاماة، ولما ارتقى هذا الفن درجات مهمة فى السلم الأدبى ، لم يعد يخشى من وضع اسمه على رواية أدبية ، مع ما فيها من حب وعشق للطبيعة الشعرية لما لم يعد هذا اللون قاصرا على هيكل وإنما امتد إلى غيره من أعلام الأدب فى عصره مثل الدكتور طه حسين وإبراهيم المازنى وتوفيق الحكيم وعباس العقاد وغيرهم.

وأحب أن أتجاوز معايير القراءة النقدية للرواية الحديثة ، فأقدم فى السطور التالية إلى عرض موجز لرواية (زينب) لعله يناسب بعض الذين لا يجدون لديهم من الوقت والأداة ما يشجعهم على التعامل المعرفى الذى صار سمة بارزة فى النقد الحديث .

أقول: معتمدا على أوراق قديمة عاشت زمنا فى أضابير مكتبى:

إن (حامدا) يعيش بالمدينة وهو مشبوب العاطفة، عاشق للطبيعة، محب للوطن، وعندما يعود فى عطلته السنوية ، ولا يقدر على مفاتحة ابنة عمه (عزيزة) بحبه مع إنما قد خطبا لبعضهما منذ الصغر فتحول بعواطفه المتقدة وعشقه المتأجج إلى زينب العاملة الريفية الجميلة (البسيطة) فيحبها، ويتعلق بها، ويسير معها على مرآى من الآخرين بينما هى لا تنشغل به ولا تطمح فى الزواج منه ، لما بينهما من فوارق طبيعية، وهى على الأقل تعمل فى مزارع والده ويتعلق قلبها بشخص أخر هو إبراهيم رئيس العمال ويقيم به، ولكن أهلها يزوجونها

لحسين خليل وهو من المؤسرين ، وتعيش معه بنفس مضطربة ، حيث بقيت متعلقة بحبيبها إبراهيم الذى سافر إلى السودان ؛ لتأدية الخدمة العسكرية ، أما حامد فقد أصيب بصدمة عنيفة ، بعد أن تزوجت عزيزة ويشتد عذاب زينب بعد سفر حبيبها ، وتصل أحداث الرواية إلى نهاية حزينة فقد أصيبت البطلة بداء الرئة (السل) وتموت ومنديل إبراهيم بين يديها.

وهكذا نلاحظ أن الأحداث ذات مضامين اجتماعية بمعالجة عاطفية رومانسية تتخذ من تصوير المناظر الطبيعية وسائل الحياة فى الريف ميدان أو مسرحا لتشابك الأشخاص والأحداث .

وقد ذكر الدكتور هيكل – بعد أن مر على كتابة هذه الرواية – ما يقرب من عشرين عاما أنها تمثل شبابه تمثيلا صحيحا، وإن فيها كثيرا مما أحب ، سواء لأنه دخل عالم الذكرى، أو لأنه يمثل أحلام الشباب وخيلاته[١] ولعلى أجد فى بعض السطور بالمقدمة إجابة عن سؤال يرد على أذهان القراء فى بدايات القرن العشرين ، بعد أن طبعت الرواية والتى يمكن أن تكون الأولى من الناحية الفنية آنذاك.

وقد حدد قصده ومبتغاه مما كتب فقال :

"ولعل الحنين وحده هو الذى دفع بى إلى كتابة هذه القصة، ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفا ، ولا رأت هى نور الوجود، وفقد كنت فى باريس طالب علم – كما ذكرت من قبل – يوم بدأت أكتبها، وكنت ما أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ما خلفت فى مصر مما لا

---

(١) مقدمة رواية زينب ص ٩ .

تقع عينى هناك على مثله، فيعاودنى للوطن حنين فيه عذوبة لاذعة لا تخلو من حنان ولا تخلو من لوعة"[١] .

والأمر الثانى من دوافع الكتابة هو الإعجاب بباريس وحب الأدب الفرنسى ، وقد نص الكاتب على ذلك فى أكثر من موضع ، فقال فى المقدمة أيضاً : "وكنت ولوعا يومئذ بالأدب الفرنسى أشد ولع، فلم أكن أعرف منه إلا قليل يوم غادرت مصر وبضاعتى من الفرنسية لا تتجاوز الكلمات عدا، فلما أكببت على دراسة تلك اللغة وآدابها رأيت فيها غير ما رأيت من قبل فى الآداب الإنكليزية ، وفى الآداب العربية رأيت فيها سلاسة وسهولة ... ورأيت مع هذا كله قصدا ودقة فى التعبير والوصف ، وبساطة فى العبارة لا تواتى إلا الذين يحبون ما يرون التعبير عنه أكثر من حبهم ألفاظ عبارتهم . واختلط فى نفس ولعى بهذا الأدب الجديد بحنينى العظيم إلى وطنى"[٢] وتجلى تأثر هيكل بالأدب الفرنسى فى نهاية أحداث الرواية بمثل الخاتمة التى انتهت إليها رواية (غادة الكاميليا) الزهرة الفرنسية الجميلة لألكسندر ديماس ، كما تجلت الأحداث فى قصة زينب عن تأثر المؤلف بأفكار قاسم أمين ، خاصة من خلال كتابيه (تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة) .

وكانت زينب الرواية الأولى التى ظهر فيها هذا التأثر، ثم تلتها مجموعة أخرى من الروايات المتعاقبة ، وكان معظمها يحمل اسم شخصية نسائية ، فأحدث هذا نوعا من خلخلة التراتب الأدبى للأنواع

---

(١) السابق ص ٩ .
(٢) السابق ص١٠ .

الأدبية[١] ، وأحدث كل ذلك تسليطا للأضواء على القرية المصرية بما فيها نموذج الفلاحة التى صنع منها محمود مختار أجمل تماثيله.

وتوالت الأسماء الأنثوية تمثيلا لهذا التوجه ، الذى كان استجابة لمقولات قاسم أمين ، أو تعبيرا عن الأطروحات الجديدة على مستوى الأدب العربى مثل حواء الجديدة لنقولا حداد (١٩٠٥م) وفاتنة الإمبراطور (١٩٢٢م) ومثل (ثريا) (١٩٢٢م) لعيسى حداد[٢].

أما معالجة (حامد) و(زينب) وتوهج الحب فى قلب كل منهما وبحث قضية الزواج ، وتصوير البيئة، وإبراز الملامح الطبيعية فى الحياة المصرية فضلا عن بعض التوجهات الأخرى الخاصة بالتشويق والعقدة والإثارة ، فكانت كلها دوافع ملحة لدخول هذه الأحداث بمعالجتها الفنية إلى عالم السينما فى وقت مبكر جدا مع المتابعة الجادة لهذه القصة ، لكونها عمل فنيا متميزا ولدخولها إلى ساحة الفن السابع.

ومن الملاحظ أن شخصية حامد فى الرواية تمثل شخصية المؤلف ابن صاحب الأرض لكن إحساسه بالواقع فى وطنه أو غربته جاء تعبيرا عن أبناء الطبقة الوسطى من خلال الضياع الذى غرق فيه، وعند الحديث عن مأساة فتاة جميلة من أهل الريف لم تسعد فى حبها ولا فى زواجها الذى انتهى بها إلى المرض ثم إلى الموت.

وهكذا جاءت أحداث الرواية معبرة عن المأساة التى تحياها نسبة كبيرة من فتيات المجتمع ونسائه ، ولكن الهموم متقاربة فى أبرز شخصيات الرواية (حامد – زينب – إبراهيم – عزيزة) ومن الملاحظ

---

(١) انظر كتاب زمن الرواية للدكتور جابر عصفور ص١١١ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) راجع السابق ص١٠٩ .

أن عاطفة الكاتب وهو يصور ذكرياته وحبه لوطنه فى غير حاجة إلى دليل فضلا عن رغبته العارمة فى التعبير والتصوير مما سماه أدبا جديدا كان يظن ــ عندما ــ شرع فى الكتابة ــ أنه سيقدم قصة قصيرة فإذا عيناه لا تبصر إلا الوطن ينفسح أمامه، وتبدو مناظره أمام عينى الكاتب الذى استكمل الحديث عن ذكرياته آنذاك، فقال : "ورأيتنى أشعر بلذة دونها لذة كلما سطرت صورة من صور هذا الوطن الذى أحن إليه، ثم راجعتها فرأيتها تترجم عن الحقيقة المرتسمة فى نفسى، ولم تمض أسابيع على بدئى الرواية حتى رأيتنى اعتزمت إتماما كما تمت، لأصور فيها حياة الريف المصرى أصدق تصوير كنت أستطيعه.

والعجيب أن شهوة ملكتنى لم أكن أستطيع تفسيرها، ذلك أنى كنت أفضل الكتابة فى القصة فى ساعات الصبح على إثر يقظتى، وكنت إذا بدأت أكتب أسدلت أستار نوافذى فحجبت ضوء النهار، وأضأت مصابيح الكهرباء، كأنما أريد أن أنقطع عن حياة باريس؛ لأرى فى وحدتى وانقطاعى حياة مصر مرسومة فى ذاكرتى وخيالى.

أما حين كنت فى سويسرا فكثيرا ما كنت ــ إذا بهرنى منظر من مناظرها الساحرة ــ أسرع إلى كراسة زينب ، فأنسى إلى جانبها منظر الجبل أو البحيرة والأشجار تتسرب من خلال أوراقها أو غصونها أشعة الشمس أو القمر، لتتلاعب بموج الماء أو لتداعبه، وأستعيد مناظر ريفنا المصرى وجمال خضرته الناظرة"[١].

وهكذا كانت الرواية تعبيرا عن حب الكاتب لوطنه من خلال تصويره للعادات والتقاليد، ورسمه للمناظر والصور والأخلاق .

---

(١) السابق صـ١٠، ١١ .

أما المسائل الأخرى ففى مرتبة ثانية كمعالجته لبعض المشكلات الاجتماعية الهامة، مثل حق المرأة فى إبداء الرأي عمن ستكون زوجة له ، ومعاناة أهل الريف من الفقر والجهل والمرض، أما وسائل الكاتب فى الصياغة والتعبير، فلا تخفى على القارئ، فضلا عن تضاريس الرواية ومنافذ الدخول إليها، فقد كان الدكتور هيكل واضح التأثر بآراء قاسم أمين وبالثقافة الفرنسية ، وبسائر الرؤى الجديدة فى الآداب الغربية بصورة عامة ٠

ومن المهم فى تمام التعرف على مكونات القصة أن أنقل جزءا منها حتى نرى كيف استطاع الكاتب أن يصور بقلمه المناظر الطبيعية بالقرية المصرية، وأن يبرز للقارئ بساطة الفتاة الريفية والتى تمثلها (زينب) من بعض الجوانب، قال: "وقد أبدعت الطبيعة فى زينب وأعطتها بذلك تاجا معترفا به من كل صويحباتها ، فإذا ساقك الحظ فى أيام الصيف ، وخرجت فى ليل غاب بدره، وتألقت نجومه فخففت من سواد الليل ، وإن لم تقدر على تبديد ظلمته ، أو كنت أسعد حظا واتخذك القمر رفيقا، فأدلجت بين تلك المسطوحات الزراعية الكبيرة ، لم يكن لك بعد نقطة معينة إلا أن تسير فى طريق لا تعرف سببا لسيرك فيه وتندفع مجذوبا بقوة لا قبل لك على مقاومتها ... ثم تصل إلى نقطة تقف عندها ولا تطاوعك قدمك إلى ناحية أردت تحريكها وعد عنقك وتسترجع ، ويستخفك الجمال ويلعب بقلبك الهوى وتروح تائها عن كل ما حولك ثم يرتفع ذلك الصوت الذى جذبك إلى موقفك ثانيا فتصيخ له بأذنك ، وتصغى بكليتك فإذا زينب تحدو والعاملات من بعد ذلك يجنبها : تلك موسيقى الصيف فى ليله البديع ترسل فى أذن الخليقة النائمة نغمة الهوى ، وتبعث فى قلوب العاملين العذاب عن

ليلهم الساهر وهل هذا الصوت تردده الظلمة الصامتة إلا مهيج في النفس أجمل ما يعزيها عن كل مشقة ؟!

فإن أنت تابعت سيرك ، وأتبعت الوت حتى صرت على مقربة منه، رأيت في البحر اللجى من شعاع حائر في السماء الأطفال والفتيات ، وقد انثنوا وقبضوا بشمالهم على سيقان القمح النائم بعضه فوق بعض كأنه نشوان طرب بتلك العوامل الكثيرة التي تبعث إلى قلب المحزون ما يستخفه ويستهويه وباليمنى على شراشره ــ تلك نصف الدائرة الحديدية التي وعت عهد فرعون وتسللت مع الزمان إلى عصرنا الحاضر "[1].

ومما أخذ على بعض القراءات النقدية لهذه القصة أنها تعالج صياغات وأحداث بلغة أواخر القرن العشرين ، بعد أن مر عليها ما يقرب من تسعين عاما ذلك لأن ارتباط الرواية بالبيئة يجعلها ذات خصائص مختلفة عن غيرها ، وأقصد ما صدر من البواكير المتميزة التي تخضع غالبا لاجتهادات الكاتب ورؤاه والتي لا تحكمها قواعد صارمة في اللون الأدبي ، الذي يصاغ فيه ، ومن هنا جاء التغني بالطبيعة ووصف جمالها سمة متممة لرسم الشخصيات فأحيانا يكون الوصف معبرا عن الحيرة التي تعاني الشخصية منها، مثل حامد الذي كتب المؤلف عنه قائلا : " في ذلك الحلم الطويل كان حامد ينظر في الفراغ الهائل أمامه يموج بالنور الساطع على السموات المبيضة تذهب أمام عينيه إلى حيث لا يدري ، والهواء لا حراك به يترك الأشجار البعيدة في سكونها المطلق، وأمامه معتدلة قناة الماء تسير وسط الزرع

---

(١) رواية زينب ص١٨، ١٩ .

الأخضر تنحدر مع تيارها السريع عيدان الرز الساقطة من الخف ويلمع عليها شعاع الشمس المحرقة فى تلك الساعة من النهار ٠

ثم يتوه الكل عند مسافة قريبة لا يتصورها حامد إلى الفضاء العظيم المخوف. والعمال والعاملات يجدون فى عملهم ويتحدثون أحيانا ويضحكون، فتموت أصواتهم حولهم ، ولا يرددها مردد ثم راح فاستند إلى العش ، ووقف يحدق إلى كل ما حوله ، وهو مشتت الفكر لا يفكر فى شئ ولا يعرف شيئا، مبهوتة نفسه ... وأخيرا صمم أن يرجع إلى البلد فى تلك الساعة[1] ، فالحديث عن الطبيعة ومناظرها الخلابة كان ضروريا، لأن معظم الأحداث تجرى بين المزارع وعلى شط الأنهار، وتحت الأشجار ، لكن المبالغة فى التصوير لا يلائم فاعليات السرد وأساليب المعالجة الحديثة حيث تكون اللغة فيها ذات تركيز وخالية مما يمكن أن يعد حشوا لا يمثل إضافة لحركة الأحداث، ولكنه يسهم بدرجة كبيرة فى رسم الشخصيات ، وإبراز توجيهاتها ومعالمها خاصة أن الرواية رسالة حب من الكاتب لوطنه . وهكذا جاء تأسيس الرواية على الوصف الذى ملأ ذاكرة الكاتب فى غربته ، وبدا حامد واضح المعالم بشخصيته المصرية وهمومه الاجتماعية وعدم قدرته على معايشة الواقع فى علاقته بابنة عمه ، أو فى ميله إلى زينب مما انعكس عليه بالحيرة والاضطراب ٠

لقد كان الكاتب معنيا أشد عناية بتصوير الريف تصويرا طبيعيا من حيث العادات والتقاليد ، ومن حيث المناظر الخلابة التى تسر العيون وتجذب القلوب وتحيى النفوس ، وكان نموذجا للشخصية الأولى فى (زينب) حيث يحيا فى تناقض بين أفكاره وبين إيمانه بحق

---

(١) السابق ص١٧٩ ٠

المرأة فى اختيار من ستحيا معه فى حياة زوجية ، واتضح تناقض الكاتب (البطل) فى مخيلته عن هذه الأفكار ، وهو ميله بقلبه نحو زينب ، ويعلم يقينا أنه تعجبه ولا تصلح له زوجة لما بينهما من فوارق متعددة ، فقد كان يلجأ إليها استجابة لعواطفه ، وهروبا من واقعه الذى أحس فيه بالتيه والضياع .

وقد طوق الكاتب فصول روايته بألوان من الصياغات الوصفية الجميلة التى كانت سمة بارزة وطرازا جميلا للأشخاص والأحداث والزمان والمكان ، وجاءت اللغة رقيقة شفافة وهو يرسم بالكلمات شخصية زينب ومناظر القرية وحركة الحياة بها، وفى موقف جمع بين إبراهيم وزينب قال المؤلف ، " أنا مسافر مثل النهاردة هاته هى الكلمة التى قدر إبراهيم أن يقولها لزينب ساعة قابلها راجعة من المواردة تحمل جرتها مملوءة بالماء ، وهذه الكلمة كادت تصعق لها زينب وتقع مغشيا عليها .

رجعت إلى الدار متمهلة فى طريقها يكاد يغيب رشدها كلما استعادت أمام نفسها هاته الكلمة ، ولكنها بالرغم مما عراها من الألم استمرت حتى انتهت من أدوارها المعتادة ، ثم رجعت بجرتها فارغة والوقت مؤذنا بالمغيب فتركتها عند حرف الترعة، ونزلت وسط المزرعة حتى قابلت إبراهيم[1] " .

ومن الملاحظ أن اللغة فى هذه الرواية كان مسار نزاع بين دعاة الفصحى ودعاة العامية ، ولكن استعمال العامية خاصا فى الحوار كان يمثل عند البعض ولا زال سببا للدعوة إلى ما يطلق عليه الصدق الفنى ولكن استعمال الفصحى سردا أو حوارا يعتبر عند الكثيرين مطلبا قوميا وضرورة حتمية تفرضها الظروف والملابسات المحيطة بالمنطقة العربية المتمسكة بلغة الضاد ، وكانت هذه التجربة مرتبطة بالمدة التى ولدت ونشأت فيها الرواية التى بين أيدينا وأقلع الكاتب عن

---

(١) السابق ص٢١٨ .

بريق العامية الزائف ، واستمسك بالفصحى لما فيها من رونق واصالة فكتب بها سائر كتبه ومقالاته الأدبية والدينية والسياسية وغيرها من الألوان ·

وقد عمد إلى استكمال رسم الشخصيات وتصوير الأحداث بالخطابات المتداولة بين حامد وأبيه ، أو بين حامد وإبراهيم ، أو بين إبراهيم وحسن ، ذلك التوجه الذى كانت تفرضه ملابسات الغربة التى خيمت على حياة المؤلف عند سفره إلى أوربا ولنقرأ ما كتبه فى هذه الرواية مما يمكن أن يعد استكمالا لبعض العادات بالقرية فى أعقاب وفاة أحد الأشخاص قال : "خرجت الطبالى قليلة ساعة الظهر، لكنك كنت ترى ساعة المغرب قريبا من الخيمة المنصوبة جيشا عرمرما من النساء والفتيات وكلهن تحمل صنيتها على رأسها. وصاحبات الصوانى قد حملن فى أيديهن كراسى العشاء وبقين جميعا ينتظرن أن تخرج صوانى جماعة الميت ، وفى الخيمة الصامتة يتميز صوت قارئ القرآن يرتله ويتغنى به، فيرسل مع كل آية يقرأ ما يزيد الناس شعورا بالحزن المحيط بهم ، ولما اختتم سورته جاءت الصوانى، وتسابق النسوة بما معهن إلى الخيمة داخلات كأنهن السيل المنهمر ، ومن بينهم دخلت كبرى أخوات حسن تحمل صنيتهم[1] ·

أن رواية زينب للدكتور محمد حسين هيكل واحدة من الأعمال المتميزة فى مسيرة النثر الأدبى الحديث ، وجديرة بأن تكون النص الروائى الذى لا يختلف اثنان على قيمته ومنزلته فى بدايات القرن العشرين ، مع أنها التجربة الأولى للكاتب ، ولما جاءت روايته الثانية (هكذا خلقت) عن المرأة ايضا كان الفن الروائى قد تقدم وتطور كثيرا عن ذى قبل ، ولم يكن لهذه مثل ما لتلك من الشهرة والذيوع والانتشار ·

---

(١) السابق صـ٢٩٤ ·

الخيال العلمى فى
فن الرواية والقصة القصيرة(*)

لا شك فى أن الفن القصصى قد قطع أشواطا كثيرة من التجريب والتحديث إبان النصف الثانى من القرن العشرين، ووصل بعض الأدباء العظام إلى مستوى متقدم من الثقة فى قدراتهم وعطاءاتهم فى هذا الفن ، فصاروا لا يخضعون للأعراف الثابتة، ويرون أنهم بحالة تتجاوز القواعد والدساتير، وما دام القراء يقبلون على نتاجهم، أو يشاهدونه مصورا ، أو يستمعون إليه مذاعا فليس لأحد أن يعترض عليهم ، أو يناقشهم فى شئ من مكونات العمل الأدبى، وأنهم قد تجاوزوا المراحل الأولى من التجريب الفنى، تلك المراحل التى تليق بالناشئة وأصحاب البواكير الأولى، والتى يكون الأديب فيها غضا لينا محتاجا إلى من يأخذ بيده ويدله على معالم الطريق.

وسواء أكانت هذه الرؤى صحيحة أم مجافية للصواب، فإن بعض الأمور تبقى محظورة لا يصح أن تنتهك حماها خاصة ما اتصل منها بالعقائد والأديان والمبادئ والأخلاق.

أما الخيال فيضيق ويتسع حسب إمكانات الأديب ومقدرته فى تصوير المواقف، والصراع بين شخوص العمل الأدبى بما لا يتعارض مع الأحداث الثابتة فى التاريخ، فالقصة التاريخية (قصيرة أم طويلة) ليست مصدرا رئيسيا يمكن الاعتماد عليه فى تصوير المعارك، وقيام الثورات، وتحديد الصراعات بين الأمم والشعوب، أو حتى بين الأفراد الذين يعيشون على هامش الأحداث.

(*) كلمة مقدمة إلى مؤتمر (ملامح التجريب فى الأدب والإعلام) ، والذى نظمته كلية الآداب جامعة المنيا فى المدة من ٢٤ ــ ٢٥ فبراير عام ٢٠٠٣م والموضوع فى ظلال المحور الأدبى " التجريب فى فن الرواية والقصة القصيرة " .

وتبقى الأسطورة مادة ثرية فى بناء الأعمال القصصية الطويلة، إذ اعتمد الأدب الإنسانى عامة على كثير من الأساطير التى كانت ، ولا زالت أهم الأسباب للإثارة والتشويق، وكان الأدب اليونانى أكثر الآداب التى تمتلئ بالعديد من الأساطير، كما اتسعت وتعددت ملامح الأدب الأسطورى عند الأمم الأخرى مثل الصينين والهنود والفرس، ولعل قصص كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة من الأعمال الأدبية الخالدة التى تسجل دور الأسطورة فى الآداب العالمية، وانتقالها إلى الأدب العربى شيئا فشيئا .

ونما الأدب العلمى فى القصة والرواية أيضا مع بداية القرن العشرين، لكن بعض النماذج فى هذا اللون لم يكتب لها الذيوع والانتشار؛ لأن الأدب (قصة ورواية) لا ينبغى أن يجرد تماما من الخيال الذى لا تتحقق النظريات العلمية تحت ظلاله، وهو أى "الأدب العلمى" لون متجدد يجمع بين الأدب والعلم بخيوط فيها نعومة الأدب وصرامة العلم، ومن هنا كان الاتجاه التجديدى فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين نحو أدب الخيال العلمى، والذى صار خاضعا لكثير من التجارب والممارسات النشطة بالمعلومات الكثيرة التى تبثها وسائل المعرفة بسهولة ويسر .

ومن الملاحظ أن هذا اللون بما فيه من إثارة ومتعة لا يقبل عليه الكتاب العرب بقدر كاف ، ولا يمثل باعثا أو هما يفرض نفسه عليهم مع أن المتلقى له يبحث عنه، ويسعى إليه، ولا يجد منه إلا النزر اليسير، فأدباء الخيال العلمى فى القصة القصيرة والرواية قليلون، وإنتاجهم ليس غزيرا، والباحثون عنه كثيرون، وهذه الإشكالية جديرة

بأن تحظى بالبحث والنقاش من المبدعين والنقاد خاصة في حقل الدراسات الأكاديمية الجادة٠

ولماذا انصرف الأدباء عن الكتابة في هذا الشكل الفني ؟

نرى أن المبدعين الكبار في السن مع اقتراب شمس القرن العشرين على الأفول لم تتح لهم سبل المعرفة العلمية الواسعة بالقدر المطلوب؛ حتى يغذوا السير في طرق المعالجة الدقيقة للإبداع البارز والمتقدم ٠

وجاء الجيل الجديد الذى نمت ثقافته في الربع الأخير من القرن الماضي القريب فكان اعتماده في تكوين معارفه على الذين سبقوه في عالم الأدب، وليس في مجال العلم، ولم تتجاوز قدراته الحدود والمعالم التي كانت آخر ما يطمح فيه ويسعى إليه ٠

أما من اتسعت دائرة الرؤية لديهم في حقول الإبداع فكانت تجاربهم قليلة، وليست لها أرضية ثابتة وراسخة يمكن من خلالها أن يقدموا الرواية المتميزة أو القصة المبهرة التي تستحوذ على الألباب ، وتشغل الفكر والوجدان باستثناء عدد قليل من المبدعين كانت طموحاتهم راقية ومواهبهم متميزة، وجديرة بأن تشكل علامة بارزة في مسيرة أدب الخيال العلمي ومن هؤلاء: الكاتب نهاد شريف الأديب المتميز في كتابة الرواية والقصة القصيرة بمعالجات علمية يشكل الخيال فيها دورا مؤثرا ٠

لقد حفل الأدب العربي قديمه وحديثه بالعديد من النماذج التي اعتمدت على الأسطورة ، واستمدت وقائعها منها لكن هذه النماذج كانت قليلة لا تصل إلى الدرجة التي تتساوى أو تقترب مما لدى الأمم

الأخرى؛ وذلك راجع لأسباب متعددة لعل منها طبيعة الجنس العربـي ومكوناته الدينية والبيئية والعقلية، وعلاقاته بالشعوب المجاورة إيجابـا وسلبا.

وإذا كان أدب الخيال العلمى مطلوبا الآن فإن مواقف أكثر الأدباء منه لم تتغير، وبقيت كتاباتهم فى إطار الواقع الذى يحيون فى ظلالـه، وقدم نفر منهم بعض النماذج الأسطورية فى الرواية الحديثة مثل أحلام شهر زاد للدكتور طه حسين ، ورحلات السندباد للكاتب عبـدالرحمن فهمى ، وكثيرا ما كانت الأسطورة الوافـدة مـن الأمـم الأخـرى أو المستوحاة من أعماق التاريخ تتداخل بمستويات مختلفة مع الحكايـات الشعبية والخرافية.

وإذا ما عن لى أن أختار جانبا من الأدب لـم ينـل حظـه مـن التجريب والعناية فإنى أرشح أدب الخيال العلمى فى القصة القصـيرة والرواية جاعلا من الأعمال الإبداعية للكاتب نهاد شـريف النمـاذج المختارة للريادة أولا وللتجريب ثانيا وشاحذا همم الأدباء للكتابـة فـى هذا اللون الذى قطع الأدب العالمى فيه أشواطا كبيـرة مـن الكتابـة والتجريب ، وحظنا ــ نحن العرب ــ منه نادر أو قليـل ، فالإنسـان العربى فى حاجة ماسة إلى العلم بمثـل حاجتـه إلـى الأدب، ثـم إن انصراف الأدباء والنقاد عن السير فى طريق هذا اللون بالكتابة إبداعا ونقدا جعل الشباب والناشئة يتجهون إلى نتاج الأمم الأخرى فيقرؤونـه ويهتمون به، ويقبلون عليه.

ومن النماذج البارزة التى تحدث النقاد[١] عنها قصة (قطرة ماء) للدكتور يوسف عزالدين عيسى، والتى تكلم فيها عن قصة رجل يريـد

(١) مثل يوسف الشارونى فى كتابه الخيال العلمى فى الأدب العربى.

الحصول على الشهرة، واتجهت معظم أعمال هذا الأديب العـالم إلـى تمثيلها إذاعيا قبل طباعتها وانتشارها ٠

ولتوفيق الحكيم بعض القصص التى تسير فى هذا الاتجاه علـى استحياء مثل قصة الاختراع العجيب، والتى أشار فيها إلى قصة آلـة الزمن لويلز[١].

ولبعض الأدباء عدة قصـص ينشـرونها ضـمن مجموعـاتهم القصصية مثل "الوحش" و"فى بطن الحوت" لسعد مكاوى، والمنشورتين فى مجموعته القصصية "الفجر يزور الحديقة " ٠

وللدكتور مصطفى محمود روايتان مشهورتان فى أدب الخيـال العلمى هما : رواية العنكبوت ١٩٦٤م ، ورواية " رجل تحت الصـفر ١٩٦٧" ٠

وقد نشر الكاتب رءوف وصفى مجموعة قصصية فى هذا الاتجاه هى "غزاة من الفضاء ١٩٧٨م"٠

أما رائد هذا اللون بلا منازع فهو الكاتب نهـاد شـريف ومـن أعماله المتميزة فى القصة والرواية :

"قاهر الزمن" رواية ١٩٧٢م

"رقم ٤ يأمركم" مجموعة قصصية ١٩٧٤م ٠

"سكان العالم الثانى" رواية ١٩٧٧م ٠

"أنا وكائنات الفضاء" مجموعة قصصية ١٩٨٣م٠

"الشئ" رواية ١٩٨٨م ٠

---

(١) أدب الخيال العلمى ليوسف الشارونى صـ١١٠ ٠

"ابن النجوم" رواية ١٩٩٧م

وقد كانت رواية (قاهر الزمن) فتحا جديدا للإنتاج المتميز لأدب الخيال العلمى ، تلك الرواية التى دخل بها الأستاذ (نهاد) العالم الرحب لفن القصة مما جعل الأستاذ يوسف الشارونى يرحب بهـذا المولـود الجديد ويسعد به ويسعى لنشره وتعريف الناس به، قال:

" وتعجبت كيف استطاع شاب حديث التخرج من كلية الآداب قسم التاريخ أن يكتب رواية تدل على خلفية علمية تشربها لدرجة اسـتطاع معها أن يوظفها فى هذا العمل الذى تضافر على إنجاحه جانباه العلمى والأدبى"٠

وقال الشارونى :

" ولم يكن عمل نهاد شريف مقطوع الصلة بما يجرى فى العـالم من تطورات كان من أبرزها فى ذلك الوقت نجاح الإنسان فى غـزو الفضاء، والوصول إلى القمر ، وإطلاق الأقمار الصناعية، فضلا عن انتشار أدب الخيال العلمى فى العالم الغربى، ولا شك أن إطلاع نهـاد شريف عليه كان من بين الوسائل التى أعانته على التفوق فـى كتابـة روايته الرائدة، وكان أكثر من أديب مصرى — وربما عربـى — قـد حاول أن يكتب فى هذا النوع الأدبى ، لكن أحدا منهم لم يكرس نفسـه لكتابته على نحو ما فعل نهاد شريف فيما بعد"[١].

وقد انشغل نهاد شريف بموضوع (الأطباق الطائرة) وتجلى فى مجموعته القصصية (أنا وكائنات الفضاء) تلك المسألة التى عالجهـا يوسف الشارونى وكتب عنها قائلا :

---

(١) السابق ص١٠ ٠

" ونحن نجد أن فكرة الأطباق الطائرة تتردد عند نهـــاد شـــريف رائد الخيال العلمى فى أدبنا العربى المعاصر[١] سواء فـــى قصصـــه القصيرة أو رواياته ، وينبع شغف نهاد شريف بهذه الفكرة إلى يقينـــه الراسخ بوجود كائنات ـــ معظمها أكثر ذكاء وفطنة وأفضل أخلاقا من بنى البشر ـــ فى كواكب أخرى بل ومجرات أخرى فى الفضاء"[٢].

وقد أكد نهاد شريف تلك الإشارة فى بعـــض مقـــدمات أعمالـــه، وأخص منها المجموعة القصصية " أنا وكائنات الفضاء " والتى تحدث فى مقدمتها قائلا :

" أجل منذ حداثتى وإلى اليوم لا أتوانى إطلاقا عن مد عنقى ، شد عروقى " تقويس ظهرى ، وإلقاء رأسى خلفا" لأظل أراقب ذلك الفضاء الرحب الفسيح الذى يعلونى، والذى يزخر بخلق الله وبديع مخلوقاته ، وكلما ازداد تعلق بصرى بما هو فوق كلما نشط خيالى، وجرى قلمـــى بالعديد من التصورات والأمنيات والتطلعات والتنبؤات"[٣].

فهذه المجموعة ذات القصص العشر فريدة ومتميزة، وجديرة بأن يعاد تقديمها والتعريف بها للأجيال الجديدة التى تتابع، وتسعى إلى هذا اللون من الكتابة، ولكنها للأسف منصرفة عنه إلى ما عنـــد الآخـــرين لعدم الثقة ـــ أحيانا ـــ فيما بين أيدينا، وهم معذورون حقا ؛ لأن إبداع الأدباء من قصص الخيال العلمى على المستوى العربى قليـــل وغيـــر متميز باستثناء عدد قليل من الروايات والمجموعات القصصية ، ولهذا نؤكد على أهمية العناية بقصة الخيال العلمى تأليفا وتمثيلا وتصـــويرا

---

(١) اعتراف وإشادة مكررة بعطاء نهاد شريف .
(٢) أدب الخيال العلمى ص٢٣٤ .
(٣) أنا وكائنات الفضاء ص ٤ .

رعاية لحق العلم بمثل العناية بالأدب، ووقاية للأجيال الجديدة مما يمكن أن يلحق بها من أضرار فى غمرة الإعجاب والإقبال على هذا النتاج الذى تفرزه قرائح الآخرين ٠

ونرشح للقراء كتابين يرسمان الحدود البارزة لأدب الخيال العلمى هما: الخيال العلمى أدب القرن العشرين للأستاذ محمود قاسم[١] والخيال العلمى فى الأدب العربى للأستاذ يوسف الشارونى[٢] ٠

أما حقل التطبيق والتجريب فتمثله أعمال الأستاذ نهاد شريف [٣] التى سبق ذكرها ٠

---

(١) طبع الدار القومية للكتاب بتونس عام ١٩٩٣م ٠

(٢) طبع مكتبة الأسرة بمصر عام ٢٠٠٢م ٠

(٣) نهاد شريف: من مواليد محرم بك بالإسكندرية عام ١٩٣٢م ٠
عمل فى الصحافة والثقافة، وكتب للإذاعة والتليفزيون وحصل على الجائزة الأولى من نادى القصة عن رواية (قاهر الزمن)، كما ظفر بالعديد من الجوائز، وترجمت قصصه إلى العديد من اللغات، واعتبر واحدا من رواد أدب الخيال العلمى بمصر، كما تعد كتاباته لونا حديثا من الأدب طال افتقار الأدب العربى إليه ٠
وقد شارك فى تأسيس الكثير من الجمعيات العلمية والأدبية وكانت عضويته بالعديد منها مؤثرة، ولم تتوقف نشاطاته عن حدود مصر ، وإنما امتد بإسهاماته فى تفعيل الثقافة العربية إلى معظم بلدان العالم العربى ٠

بيان إرشادى حول موضوعات الكتاب

م	الموضوع	البيان
١	صوت القبيلة فى شعر الأعشى	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الثانى والعشرون سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
٢	شعر الزهد عند أبىنواس	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد السادس ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
٣	ملامح البيئة المصرية فى شعر البهاء زهير	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد الحادى عشر ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م
٤	الحياة الاجتماعية كما صورها البوصيرى	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد الخامس ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤
٥	أبوالقاسم الشابى صوت مغرد فى سماء الشعر	يمثل المقال أدب المعاناة والرغبة فى الحياة ، وقدم للبرنامج الثقافى بالإذاعة المصرية فى ١٩٩٩/٩/٢٣ .
٦	شعر الفصحى بين التقليد والتجديد	بحث تم تقديمه إلى مؤتمر الشرقية الأدبى، الذى عقد فى مدينة الزقازيق أيام ١٣، ١٤، ١٥ من أبريل ٢٠٠٢م وتم عرض ما جاء فيه ببرنامج أدب وأدباء بالقناة الرابعة فى التليفزيون المصرى لأول مرة فى ١٤/ ٤/ ٢٠٠٢م

م	الموضوع	البيان
٧	مصطفى صادق الرافعى وتجربته الإنسانية فى الفلسفة والحب والجمال	أذيع فى برنامج أعلام الفكر المعاصر فى البرنامج الثانى "الثقافى" يوم ٢/ ١٢/ ٢٠٠٠م
٨	على أدهم بين الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ	قدم فى حلقة إذاعية بالبرنامج الثقافى يوم ١٣/ ١١/ ١٩٩٤م ونشر فيما بعد بمجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الخامس عشر ١٩٩٥م
٩	الطبيعة المصرية فى رواية زينب للدكتور/ محمد حسين هيكل	كتب خصيصا لهذا الكتاب (نوفمبر ٢٠٠٤م)
١٠	الخيال العلمى فى فن الرواية والقصة القصيرة	قدم لمؤتمر ملامح التجريب فى الأدب والإعلام، والذى نظمته كلية الأدب جامعة المنيا فى المدة من ٢٤ ــ ٢٥ فبراير ٢٠٠٣م

كتب للمؤلف

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية :

١ - المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ت ٥١٢٠٨٤ ٠

٢ - مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة ت: ٣٩٥٦٧٧١

٣ - مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا ــ القاهرة٠

فهرس الموضوعات

تصويب بعض الأخطاء

ص	الخطأ	الصواب
٢٦	كن	كمن
٤١	معتر	معتبر
٤١	إن الموت	إن للموت
٤٣	يانواس	يانواسى
٤٤	لالوك	لولاك
٥٩	يانواس	يانواسى
٥٩	وتصب	وتعتبر
٥٩	إن ساءك الدهر بشئ	ساءك الدهر بشئ
	إن وبما سرك أكثر	ربما سرك أكثر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٢٤ / ٢٠٠٤